تأمّلات في سورة الفاتحة

افتتحت رابطة العالم الإسلاميّ بمكّة المكرّمة
سلسلة دعــوة الحقّ بهذا المؤلَّف

الأستاذ الدكتور/ حسن محمّد باجودة
رَئِيس قِسْم الدِّرَاسَات العُلْيَا العَرَبِيَّة
جَامِعَة أُمّ القُرَى بِمكَّة المُكَرَّمَة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

المقَـــدّمَـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سـيِّدنا محمـد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

بعونٍ من الله تعالى وتوفيق ، سبق لنا أن قمنا بدارسات متأمّـلة للسّور التّالية على التّوالي : سورة يـوسف ، سورة مريم ، سورة يس ، سورة الإسراء ، سـورة الفرقان ، سورة العاديات ، سورة النّازعات ، سورة الحاقّة ، سورة الرّعد ، سـورة محمّد ﷺ ، وها نحن أولاء ، نستعين الله تعالى علـى دراسـة سـورة الفاتـحة الكريمـة دراسة متأمّلة ، وكان اختيار هذه السورة استجابة لرغبتين :

الأولى : الإحساس بأن المنهج الأمثـل لهـذه التأمّـلات أن تبـدأ مـن أوّل المصحـف الشريـف ، وأن تتناول السّور بالترتيب ، والله تعالى وحده هو الـذي يعلم خـط سير هذه التـأمّلات مستقبلاً ، فـنحن مثـلاً نتبيـن هذه الأيام أنّا بحاجة لأن نعالج قضايا بعينها ، ترتبط بهذه السّورة الكـريمة أو تـلك . وتكـون تلـك المعالجة ، أحـد الدّوافـع لدراسة تـلك السّـورة التـي قـد لا تكـون فـي التـرتيـب ، السّورة التي ينبغي دراستها فيما لو سارت الدّراسـة وفـق التّرتيـب التّوقـيفيّ لسور المصحف الشّريـف .

الثانية : الرّغبة الصّادقة المخلصة من فريق من الإخوان الأفاضل في أن تبدأ هذه الدّراسات المتأمّلة بسورة الفاتحة الكريمة ، وأن يراعى مُستقبَلاً ترتيب السّور الكريمة .

وبشأن هذه السّورة الكريمة ، قد راعت التّأمّلات مجموعة من الأمور أهمّها ثلاثة :

الأمر الأول : الأحكام التي ارتبطت بهذه السّورة الكريمة ، وقد كان موقفنا من هذه الأحكام مجرد الاقتباس من المصادر الموثوقة ، وكان اعتمادنا كبيراً على تفسير القرطبيّ رحمه الله تعالى " الجامع لأحكام القرآن " .

الأمر الثاني : مظاهر الإعجاز البلاغيّ في السّورة الكريمة ، وكانت عنايتنا كبيرة ، كعادتنا ، بمحاولات تبيين أوجه الرّباط ، الواضحة والخفية ، بين كلمات الآية الواحدة ، وآيات السّورة الكريمة .

الأمر الثالث : الدّروس التي يمكن استفادتها من هذه السّورة الكريمة التي اعتبرها فريقٌ من العلماء سرّ القرآن الكريم ، لأنّ القرآن الكريم كتاب هداية أولاً وآخراً . وقد قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ۞ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ .

وبشأن هذه الدّراسة المتواضعة لسورة الفاتحة الكريمة ، أكرّر ما سبق أن قلت بشأن كل دراساتي القرآنية ، بأنّي أُشهِد الله تعالى الذي لا إله غيره ، بأنّي لم

أشأ لحظة من اللحظات أن أحمّـلَ حرفاً واحداً من القرآن الكريم ما لا يحتمل . ومن كانت لـــه أيّ ملاحظة على هذه الدّراسة وكلّ دراسة فلا يـــتردّد في إبدائها فـــالحقّ أحقّ أن يُتّبع .

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يتقبّـــل منّا صالح الأعمال . وأن يأخذ بأيدينا إلى أقـــوم سبيل . وأن ينير لنـــا الطريق . وأن يعفو عمّا بدر منّا مـــن تقـــصير ، وألاّ يحرمنا من أجـــر إنه سميع مجيب ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۞ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وصلّى الله على سيّـــدنا محمّـــد النبـــيّ الأمـــيّ الكـــريم ، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً . والحمد لله ربّ العالمين .

كتبه الفقير إلى عفو ربّه

د. حســن محمّــد باجودة

رئيس قسم الدراسات العليا العربيّة

جامعة أمّ القُرى بمكّة المكرمة

مكة المكرمة

صبيحة يوم الاثنين غـــرّة ذي الحـــجّة ١٣٩٩ هـــ

الموافق للثّاني والعشرين من شهر أكتوبر ١٩٧٩ م

تـــــوطئـــــة

بين يدي دراستنا المتأمّلة لسورة الفاتحة الكريمة ، نودّ أن ندوّن بعض المسائل ذوات العلاقة بها ، وهي على النّحو التّالي :

أولاً : بتدبّر الرّوايات المختلفة بشأن نزول السّورة الكريمة وكونها من المكّيّ من القرآن ، الذي نزل قبل الهجرة ، أو من المدنيّ الذي نزل بعد الهجرة ، رجح لدينا رأي جمهور العلماء الذي يذهب إلى كون السّورة الكريمة من المكّيّ من القرآن . والمعروف أنّ ثمة آراء مختلفةً للعلماء في هذه المسألة إضافةً إلى الرّأي الذي رجّحنا . فمن العلماء من ذهب إلى كون السّورة الكريمة مدنيّة . ومنهم من قال بتعدّد النّزول ، بمعنى أنّها نزلت مرّة بمكّة ومرّة أخرى بالمدينة [1] على أنّ منهم من قال : نزل نصفها بمكّة ونصفها بالمدينة[2].

ومن المفسّرين الذين تكلموا في المسألة بإسهاب أبو حيّان في البحر المحيط[3] الذي يقول " قال عليّ ، وابن عبّاس ، وعليّ بن الحسين ، وقتادة ، وأبو العالية ، وابن جبير ، ومحمد بن يحيى بن حبّان ، وجعفر الصّادق : الفاتحة مكيّة " وأضاف إلى ذلك[4]: " وقال أبو هريرة ، وعطاء بن يسار ، ومجاهد ، وسواد بن زياد ، والزّهريّ ، وعبد الله بن عبيد بن عمير ، هي مدنيّة ، وقيل إنّها مكّيّة مدنيّة ".

أمّا حجّة جمهور العلماء في كون السّورة الكريمة من المكّيّ من القرآن ، فهي أنّ الإشارة إليها قد جاءت في سورة الحجر ، وذلك في قوله تعالى[5] : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ والحجر مكيّة بإجماع العلماء . ولا خلاف أنّ

---

(1) انظر هنا مثلاً تفسير ابن كثير ٨/١ والكشاف ٢٠/١ .

(2) انظر تفسير القرطبيّ ص ١٠٠ .

(3) ١ / ١٦ .

(4) ١ / ١٦ .

(5) سورة الحجر ٨٧.

فرض الصّلاة كان بمكّة . وما حُفِظ أنّه كان في الإسلام قطّ صلاة بغير الحمد لله رب العالمين[1] وقد بين أبو الأعلى المودوديّ في تفهيم القرآن[2] أنّ الفاتحة من بين أوّلِ ما أنزل على الرّسول ﷺ . وتخبرنا الأحاديث الصّحيحة أنّها أوّل سورة كاملة نزلت على النّبيّ . وكانت قد نزلت عليه من قبل آيات شتات ، ، هنّ أجزاء من سورة العلق ، والمزّمّل ، والمدّثر. وبهذا يتبيّن أنّ سورة الفاتحة أول سورة نزلت كاملةً على المصطفى ﷺ بصفة عامة ، فهي إذن من المكّيّ من القرآن . والله تعالى أعلم .

ثانياً : عدد حروف السّورة الكريمة مائةٌ وثلاثة عشر حرفاً[3].

ثالثاً : عدد كلمات السّورة الكريمة خمسٌ وعشرون كلمة[4].

رابعاً : لا خلاف بين الجميع من القرّاء والعلماء أنّ سورة الفاتحة تتكون من سبع آيات[5] إنما اختلفوا في الآي التي صارت بها سبع آيات . لقد عدّ المكّيّون والكوفيّون[6] وجماعة من الصّحابة والتّابعين وخلقٌ من الخلف[7] بسم الله الرحمن الرحيم آية . ولم يعدّوا أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ آية[8] وقال آخرون : هي سبع آيات ، وليس منهنّ بسم الله الرحمن الرحيم . ولكن السّابعة أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ . وذلك قول أعظم قرّاء أهل المدينة ومتفقّهيهم[9] .

---

(1) انظر هنا تفسير القرطبيّ ص ١٠٠ والبحر المحيط ١٦/١ وكذلك رسالتان في التفسير وسورة الفاتحة لحسن البنّا ص ٤٣ وتفسير ابن كثير ٨/١.

(2) ص ٣٣ .

(3) تفسير ابن كثير ١ / ٨ .

(4) تفسير ابن كثير ١ / ٨ وتفسير القرطبيّ ص ٩٦ .

(5) انظر هنا مثلاً تفسير الجلالين والكشاف ١ / ٢١ وتفسير ابن كثير ٨/١ والبحر المحيط ٣١/١ وتفسير الطبري ١ / ٣٧ ويقول أبو حيّان في البحر المحيط ١ / ٣١ بشأن من شذّ عن الإجماع بكون الفاتحة سبع آيات ، ممن لا يعتبر خلافه : " وشذ عمرو بن عبيد فجعل آية : إيّاك نعبد . فهي على عدّه ثمان آيات . وشذ حسين الجعفيّ فزعم أنّها ست آيات . قال ابن عطية : وقول الله تعالى : ولقد آتيناك سبعاً من المثاني هو الفصل في ذلك ."

(6) البحر المحيط ١ / ٣١ .

(7) تفسير ابن كثير ١/ ٨ .

(8) البحر المحيط ١ / ٣١ .

(9) تفسير الطبريّ ١/ ٣٧ .

والذي رجح لدينا ، والله تعالى أعلم ، أنّ قوله تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ آية ، وعليه ، فالبسملة ليست آية من الفاتحة ولا من سواها ، إنّما هي بعض آية من سورة النّمل[1] ومنْ أكبر الأدلة على أنّ السّورة الكريمة تبدأ بالحمد لله ربّ العالمين هو أنّها ، في غير ما حديث له ﷺ ، قد أشير إليها بالحمد لله رب العالمين ، فالحمد من أسماء السّورة الكريمة الكثيرة كما سنرى ، وليست البسملة من هذه الأسماء . جاء في صحيح البخاري[2] عن أبي سعيد بن المعلّى قال : كنت أصلّي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه فقلت : يا رسول الله : إني كنت أصلي فقال : ألم يقل الله : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ ثم قال لي : لأعلمنّك سورة هي أعظم السّور في القرآن ، قبل أن تخرج من المسجد ، ثم أخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل : لأعلمنّك سورة هي أعظم سورة في القرآن ؟ قال : الحمد الله رب العالمين ، هي السّبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته . هكذا رواه البخاريّ . ورواه في موضع آخر من التفسير أن رسول الله ﷺ نادى أبّي بن كعب وهو يصلي في المسجد . فلما فرغ من صلاته لحقه قال : فوضع النبي ﷺ : يده على يدي وهو يريد أن يخرج من باب المسجد ثم قال ﷺ إني لأرجو أن لا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورةً ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها . قال أبيّ ﷺ : فجعلت أبطئ في المشي ، رجاء ذلك ثم قلت : يا رسول الله ، ما السورة التي وعدتني ؟ قال : كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة ؟ قال : فقرأت عليه الحمد لله ربّ العالمين ، حتى أتيت على آخرها . فقال رسول الله ﷺ : هي هذه السّورة وهي السّبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت[3] وروي عنه ﷺ أنه قال : ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بأخير سورة في القرآن ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها[4] ، وروي عن أبي هريرة ﷺ أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال

---

(1) الآية ٣٠ .
(2) ٦ / ٢٠ ، وفتح الباري ٨ / ١٥٦ حديث رقم ٤٤٧٤ .
(3) تفسير ابن كثير ١ / ٩ وانظر صفحة ١٠ فثمّة صيغة أخرى للحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه .
(4) تفسير ابن كثير ١ / ١٠ .

الله ﷻ قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : الحمد الله ربّ العالمين . قال الله : حمدني عبدي ، الحديث[1] .

خامسًا : لهذه السّورة الكريمة العديد من الأسماء ، ومن المعروف أنّ كثرة الأسماء دليلٌ على شرف المسمّى ، وبإلقاء نظرة على صحيح البخاري كتاب التّفسير، وعلى خمسة من كتب التّفسير هي البحر المحيط لأبي حيّان ، وتفسير ابن كثير ، وتفسير القرطبيّ ، وتفسير الطبريّ ، والكشّاف للزّمخشريّ ، يتضح أنّه أمكن إحصاء تسعة عشر اسماً لهذه السّورة الكريمة ، مع اختلاف طفيف في بعض الصّيغ . ومن هذه الأسماء ما ورد في أحاديث صحيحة . لقد ذكر أبو حيّان في البحر المحيط [2] ستة عشر اسماً هي على النحو التالي :

"١" الحمد "٢" فاتحة الكتاب (الفاتحة) "٣" أمّ الكتاب "٤" السّبع المثاني (المثاني) "٥" الواقية "٦" الكافية "٧" الشّفاء "٨" الشّافية "٩" الرّقية "١٠" الكنز "١١" الأساس "١٢" النّور "١٣" سورة الصّلاة (الصّلاة) "١٤" سورة تعليم المسألة "١٥" سورة المناجاة "١٦" سورة التّفويض .

وذكر الزّمخشريّ في الكشافّ [3] عشرة أسماء للسّورة الكريمة ، يتّفق في سبعة أسماء منها مع أبي حيّان في البحر المحيط ، ويزيد ثلاثة أسماء هي : "١" أمّ القرآن "٢" الوافية "٣" القرآن العظيم .

وذكر ابن كثير في تفسيره[4] ثلاثة عشر اسماً ، يتّفق في أحد عشر اسماً مع أبي حيّان ، ويتّفق في اثنين مع الزّمخشريّ .

---

(1) تفسير ابن كثير ١ / ١١ .
(2) ١ / ٣٢ .
(3) ١ / ٢٠ و ٢١ و ٥٩ ، ٦٠ .
(4) ١ / ٨ .

وذكر القرطبيّ في تفسيره[1] اثني عشر اسماً ، يتّفق في تسعة منها مع أبي حيّان ويتّفق في الثّلاثة الباقية مع الزّمخشريّ .

وذكر الطّبريّ في تفسيره[2] ثلاثة أسماء يتّفق في اثنين مع أبي حيّان ، وواحد مع الزّمخشريّ وابن كثير والقرطبيّ .
وذكر البخاري في صحيحه[3] اسماً واحداً هو أمّ الكتاب .

وذكر السّيوطيّ في الإتقان[4] للسّورة الكريمة خمسةً وعشرين اسماً . وبعد أن ذكر الأسماء قال بحقّ[5]: " فهذا ما وقفتُ عليه من أسمائها ، ولم تجتمع في كتابٍ قبل هذا ".

وإليك جدولاً بالأسماء التي وردت في هذه الكتب . علماً بأنّ السّيوطيّ [6] جعل سورة الصّلاة اسماً والصّلاة اسماً آخر وأسقط اسم " الواقية ".

---

(1) ص ٩٦ - ٩٨ .
(2) ١/ ٣٦ .
(3) ٦ / ٢٠ " باب ما جاء في فاتحة الكتاب .
(4) ١ / ١٨٧ – ١٩١ .
(5) الإتقان ١ / ١٩١ .
(6) الإتقان ١ / ١٩١ .

جاء في البحر المحيط : وذكروا أن الفاتحة تسمّى	الكشّاف	تفسير ابن كثير	تفسير القرطبي	تفسير الطّبريّ	صحيح البخاري	الإتقان
(١) الحمد				–	–	
(٢) فاتحة الكتاب(الفاتحة)					–	
(٣) أمّ الكتاب	–			–		
(٤) السّبع المثاني			المثاني		–	
(٥) الواقية	–		–	–	–	–
(٦) الكافية	–			–	–	
(٧) الشّفاء				–	–	
(٨) الشّافية		–	–	–	–	
(٩) الرّقية	–			–	–	
(١٠) الكنز			–	–	–	
(١١) الأساس	–	أساس القرآن		–	–	
(١٢) النّور	–	–	–	–	–	
(١٣) سورة الصّلاة		الصّلاة	الصّلاة	–	–	
(١٤) سورة تعليم المسألة	–	–	–	–	–	
(١٥) سورة المناجاة	–	–	–	–	–	
(١٦) سورة الـتّـفويض	–	–	–	–	–	
(١٧)	أمّ القرآن				–	
(١٨)	الوافية	–		–	–	
(١٩)	القرآن العظيم			–	–	
(٢٠)	–	–	–	–	–	فاتحة القرآن
(٢١)	–	–	–	–	–	سورة الشكر
(٢٢ + ٢٣)	–	–	–	–	–	سورة الحمد الأولى وسورة الحمد القصري
(٢٤)	–	–	–	–	–	سورة الدّعاء
(٢٥)	–	–	–	–	–	سورة السّؤال
المجموع ١٦	١٠	١٣	١٢	١٣	١	٢٥

وهذه بعض آراء العلماء بشأن معاني بعض أسماء السّورة الكريمة .

وبما أنّ القرطبيّ في تفسيره[1] من أكثر المفصّلين لمعاني أسماء السّورة ، فإنّا نودّ أنْ نجعل من كلامه أساساً.

١. الصّلاة : لقوله ﷺ عن ربّه ، قسمت الصّلاة بيني وبين عبدي نصفين . فإذا قال العبد : الحمدُ لله ربّ العالمين . قال الله : حمدني عبدي ، الحديث . فسمّيت الفاتحة صلاة لأنها شرط فيها[2] وقال الزّمخشريّ في تعليل تسميتها بالصّلاة : لأنّها تكون فاصلة أو مجزئة بقراءتها فيها[3].

٢. الحمد ، لأنّ فيها ذكر الحمد ، كما يقال سورة الأعراف والأنفال والتّوبة ونحوها[4].

٣. الفاتحة ، أي فاتحة الكتاب[5] وسمّيت بذلك لأنها تفتتح قراءة القرآن بها لفظاً ، وتفتتح بها الكتابة في المصحف خطّاً وتُفْتَتَح بها الصّلوات[6].

٤. أمّ الكتاب ، يقول البخاريّ [7]: " وسمّيت أمّ الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف ، ويبدأ بقراءتها في الصّلاة ".

٥. أمّ القرآن ، يقول القرطبيّ [8] : " وفي الفاتحة من الصّفات ما ليس لغيرها حتى قيل إنّ جميع القرآن فيها . وهي خمسٌ وعشرون كلمة ، تضمّنت جميع علوم القرآن . ومن شرفها أنّ الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده . ولا تصحّ القربة

---

(١) ص ٩٦ – ٩٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٨ .
(٣) الكشاف ١ / ٢١ .
(٤) تفسير القرطبيّ ص ٩٧ .
(٥) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٨ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٩٧ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٨ وتفسير الطبريّ ١ / ٣٦ .
(٧) الصحيح ٦ / ٢٠ .
(٨) ص ٩٦ .

إلا بها ، ولا يلحق عملٌ بثوابها . وبهذا المعنى صارت أمّ القرآن العظيم ، كما صارت قل هو الله أحد ، تعدل ثلث القرآن ، إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ . و: قُلْ هو الله أحد ، فيها التّوحيد كلّه . وبهذا المعنى وقع البيان في قوله عليه السلام لأبيّ : أيّ آية في القرآن أعظم ؟ قال : اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . وإنّما كانت أعظم آية لأنّها توحيدٌ كلّها . كما صار قوله : أفضل ما قلته أنا والنّبيّون من قبلي : لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، ؛ أفضل الذّكر ، لأنها كلمات حَوَتْ جميع العلوم في التّوحيد . والفاتحة تضمنت التّوحيد ، والعبادة ، والوعظ ، والتذكير. ولا يستبعد ذلك في قدرة الله تعالى " . ويقول الطبري[1] : " وسمّيت أمّ القرآن لتقدّمها على سائر سور القرآن غيرها ، وتأخّر ما سواها خلفها ، في القراءة والكتابة ، وذلك من معناها شبيهة بمعنى فاتحة الكتاب ، وإنّما قيل لها لكونها كذلك أمّ القرآن ، لتسمية العرب كلّ جامع أمراً ، أو مقدّماً لأمر ، إذا كانت له توابع تتبعه وهو لها إمامٌ جامع : أُمّا . فتقول للجلدة التي تجمع الدّماغ أمّ الرّأس ، وتسمّى لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها للجيش أُمّا ، وقد قيل إنّ مكّة سمّيت أمّ القرى لتقدّمها أمام جميعها وجمعها ما سواها " ويقول الزّمخشري[2]: " وتسمّى أمّ القرآن لاشتمالها على المعاني الّتي في القرآن من الثّناء على الله تعالى بما هو أهله ، ومن التّعبُّد بالأمر والنّهي ، والوعد والوعيد " .

٦. المثاني[3] أو السبع المثاني[4] وقد صحّ تسميتها بالسّبع المثاني[5] وأمّا تأويل اسمها أنّها السّبع ، فإنّها سبع آياتٍ لا خلاف بين الجميع من القرّاء والعلماء في ذلك .. وأمّا وصف النبي ﷺ آياتها السّبع بأنّهن مثانٍ فلأنّها تُثَنّى قراءتها في كلّ صلاة تطوّع ومكتوبة ، وكذلك كان الحسن البصريّ يتأوّل ذلك.[6]

٧. القرآن العظيم . سمّيت بذلك لتضمّنها جميع علوم القرآن ، وذلك أنّها تشتمل على الثناء على الله ﷻ ، بأوصاف كماله وجلاله ، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص

---

(1) تفسير الطبريّ ١ / ٣٧ .
(2) الكشاف ١ / ٢٠ .
(3) الكشاف ١ / ٢٠ وتفسير القرطبيّ ص ٩٧ .
(4) البحر المحيط ١ / ٣٢ وتفسير الطبريّ ١ / ٣٦ والكشاف ١ / ٥٩ .
(5) تفسير ابن كثير ١ / ٩ .
(6) تفسير الطبريّ ١ / ٣٧ وهذا المعنى لدى الزّمخشريّ ١ / ٢١ ، وابن كثير ١ / ٩ والقرطبيّ ص ٩٧ .

فيها ، والاعتراف بالعجز عن القيام بشيءٍ منها ، إلاّ بإعانتــه تعــالى ، وعلــى الابتهال إليه ، في الهداية إلى الصراط المستقيم ، وكفايــة أحــوال النّاكثيــن ، وعلى بيان عاقبة الجاحدين[1].

٨. الشّفاء . روى الدّرامي عن أبي سعيد الخدريّ قال : قال رســول الله ﷺ فاتحــة الكتاب شفاءٌ من كلّ سمّ [2].

٩. الرّقية : ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخدريّ وفيه أنّ رسول الله ﷺ قال للرجل الذي رقى سيّد الحيّ : ما أدراك أنّها رقية ؟ فقال : يا رسول الله . شيءٌ أُلقِــيَ في رُوعي . الحديث خرّجه الأئمة[3].

١٠. الأساس : روى الشعبيّ عن ابن عباس أنّه سمّاها أســاس القــرآن . قــال : أساسها﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [4]

١١. الوافية ، قاله سفيان بن عيينة ، لأنها لا تتنصّف ولا تحتمل الاختزال ، ولــو قرأ من سائر السّور نصفها في ركعة ونصفها الآخر في ركعة لأجــزأ ، ولــو نصّفت الفاتحة في ركعتين لم يجزِ[5].

١٢. الكافية ، قال يحيى بن أبي كثير : لأنّها تكفي عن سواها ، ولا يكفي ســواها عنها[6].

١٣– ٢٥ – الأسماء الباقية للسّورة الكريمة واضحة معانيهــا ومنهــا : الواقيــة ، والشّافيــة ، والكنز ، والنّــور ، وســورة تعلــيم المــسألة ، وســورة المناجــاة ، والتّفويــض ، وسورة الشّكر ، وسورة الدّعاء ، وسورة السّؤال .

سادسًا : ورد في سورة الفاتحة من أسماء الله تعالى الحسنى : خمــسة : الله . الــرّبّ . الرّحمن ، الرّحيم ، المالك[7].

---

(1) تفسير القرطبيّ ص ٩٨ .
(2) تفسير القرطبيّ ص ٩٨ وتفسير ابن كثير ١ / ٨ .
(3) تفسير القرطبيّ ص ٩٨ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٨ وفي الصحيحة ٢٠٠ حديث البخاري عن الذي رقى بالفاتحة . والرّوْع : الخاطر والقلب .
(4) تفسير ابن كثير ١ / ٨ وانظر تفسير القرطبيّ ص ٩٨ .
(5) تفسير القرطبيّ ص ٩٨ .
(6) تفسير القرطبيّ ص ٩٨ .
(7) تفسير أسماء الله الحسنى ، أبو إسحاق إبراهيم بن السّري الزّجاج ص ١٠ .

سابعًا : قيل لعبد الله بن مسعود : لِمَ لَمْ تكتب فاتحة الكتاب في مصحفك ؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر (الأنباريّ) يعني أن كل ركعة سبيلها أن تُفْتَتَح بأمّ القرآن قبل السّورة المتلوّة بعدها . فقال : اختصرت بإسقاطها ، ووثقت بحفظ المسلمين لها ، ولم أثبتها في موضع فيلزمني أن أكتبها مع كل سورة ، إذ كانت تتقدّمها في الصّلاة[1].

ثامناً : عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : مَنْ صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خِداجٌ ثلاثًا غير تمام . فقيل لأبي هريرة : إنّا نكون خلف الإمام فقال : اقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله ﷻ قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . قال الله : حمدني عبدي . وإذا قال : الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قال الله : أثنى عليّ عبدي . فإذا قال : مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، قال الله : مجّدني عبدي . وقال مرّةً : فوّض إليّ عبدي . فإذا قال : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل . فإذا قال : اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ، قال الله : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل "[2] يقول القرطبي[3] : " واختلف العلماء في وجوب قراءة الفاتحة في الصّلاة ، فقال مالك وأصحابه: هي متعيّنة للإمام والمنفرد في كل ركعة " وقال الشّافعيّ فيما حكى عنه البويطيّ وأحمد بن حنبل : لا تجزئ أحداً صلاة حتى يقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة ، إماماً كان أو مأموماً ، جهر إمامه أو أسرّ . وكان الشّافعيّ بالعراق يقول في المأموم : يقرأ إذا أسرّ ولا يقرأ إذا جهر ، كمشهور مذهب مالك . وقال بمصر ، فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة ، قولان : أحدهما أن يقرأ . والآخر يجزئه ألاّ يقرأ ويكتفي بقراءة الإمام . حكاه ابن المنذر.

---

(1) تفسير القرطبي ص ٩٩ .
(2) تفسير ابن كثير ١ / ١١ .
(3) تفسير القرطبي ص ١٠٢ وثمّة كلام طويل وآراء عدّة .

وقال ابن وهب وأشهب وابن عبد الحكم وابن حبيب والكوفيون : لا يقرأ المأموم شيئاً ، جهر إمامه أو أسرّ ، لقوله عليه السّلام : فقراءة الإمام له قراءة ، وهذا عامّ . ولقول جابر : من صلّى ركعة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فلم يصلّ ، إلا وراء الإمام[1]. وقد علّق القرطبي على هذه الآراء وغيرها مما لم نذكر قائلاً[2] : " الصّحيح من هذه الأقوال قول الشافعيّ وأحمد ومالك في القول الآخر ، وأنّ الفاتحة متعيّنة في كل ركعة لكل أحد على العموم ، لقوله ﷺ : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب . وقوله : مَن صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خِداجٌ ثلاثًا . وقال أبو هريرة : أمرني رسول الله أن أنادي أنه : لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد . أخرجه أبو داود . كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعةٍ أخرى ، فكذلك لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها . و به قال عبد الله بن عون . وأيوب السختيانيّ ، وأبو ثور ، وغيره من أصحاب الشّافعيّ ، وداود بن عليّ ، وروى مثله عن الأوزاعيّ ، و به قال مكحول ".

تاسعاً : للقرطبيّ في تفسيره كلام قيّم بشأن من عجز عن حفظ الفاتحة رغم اجتهاده يقول رحمه الله تعالى[3]: " من تعذّر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده ، فلم يقدر على تعلّم الفاتحة أو شيء من القرآن ، ولا علق منه بشيء ، لزمه أن يذكر الله في موضع القراءة بما أمكنه ، من تكبير أو تهليل ، أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد ،أو لا حول و لا قوة إلا بالله ،إذا صلى وحده أو مع إمام فيما أسرّ فيه الإمام . فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبي أوفى قال : جاء رجل إلى النّبي ﷺ فقال : إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً ، فعلّمني ما يجزئني منه . قال : قل : سبحان الله والحمد الله ولا إله إلا الله والله أكبر ، و لا حول ولا قوة إلا بالله . قال : يا رسول الله هذا لله فماذا لي ؟ قال : قل : اللهم ارحمني وعافني و اهدني وارزقني .. فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللّفظ ، فلا يدع الصلاة مع الإمام جهده ، فالإمام

---

(1) تفسير القرطبي ص ١٠٢ .
(2) تفسير القرطبي ص ١٠٣ .
(3) تفسير القرطبيّ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

يحمل ذلك عنه إن شاء الله .. وعليه أبداً أن يجهد نفسه في تعلّم فاتحة الكتاب فـمـا زاد ، إلى أن يحول الموت دون ذلك ، وهو بحال الاجتهاد ، فيعذره الله .... مـن لم يواته لسانه إلى التّكلّم بالعربيّة من الأعجميين وغيرهم ، وترجم له الدّعاء العربيّ بلسانه الذي يفقه لإقامة صلاته ، فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى '.

هل البسملة آية من الفاتحة وغيرها من السور؟

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتح بها الصّحابة كتاب الله ، واتّفق العلماء على أنّها بعض آية من سورة النّمل ، ثمّ اختلفوا ، هل هي آية مستقلّة في أوّل كلّ سورة أو من كلّ سورة كُتبت في أوّلها ، أو أنّها بعض آية من كلّ سورة ، أو أنّها كذلك في الفاتحة دون غيرها. أو أنّها إنّما كتبت للفصل لا أنّها آية ، على أقوال العلماء سلفاً وخَلَفاً[1].

قرّاء المدينة والبصرة والشّام وفقهاؤها على أنّ التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السُّوَر . وإنما كُتبت للفصل والتبرّك بالابتداء بها ، كما بُدِئ بذكرها في كلّ أمر ذي بال . وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله ومن تابعه ، ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصّلاة[2] وهذا هو الثّابت [3] عن الخلفاء الأربعة ، وعبد الله بن مغفّل ، وطوائف من سلف التّابعين والخلَف ، وهو مذهب أبي حنيفة والثّوريّ وأحمد بن حنبل[4] .

وقرّاء مكّة والكوفة وفقهاؤهما على أنّها آيةٌ من الفاتحة ومن كلّ سورة ، وعليه الشّافعيّ وأصحابه رحمهم الله ، ولذلك يجهرون بها وقالوا : قد أثبتها السّلف في المصحف ، مع توصيتهم بتجريد القرآن ، ولذلك لم يثبتوا آمين .

فلولا أنّها من القرآن لما أثبتوها . وعن ابن عبّاس : من تركها فقد ترك مائةً وأربع عشرة آيةً من كتاب الله تعالى [5] وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السّورة حتّى ينزل عليه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ[6] ومِمّن حُكيَ عنه أنها آيةٌ من كلّ سورة إلاّ براءة ،

---

(1) تفسير ابن كثير ١ / ١٦ .
(2) الكشّاف ١ / ٢١ وهذا هو رأي الطبريّ في تفسيره ١ / ٤٩ .
(3) يريد عدم الجهر بالبسملة في الصلاة .
(4) تفسير ابن كثير ١ / ١٧ و ١٦ .
(5) الكشاف ١ / ٢١ .
(6) تفسير ابن كثير ١ / ١٦

ابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزّبير ، وأبو هريرة ، وعليّ . ومن التّابعين عطاء وطاوس وسعيد بن جُبير و مكحول والزّهريّ . و به يقول عبد الله بن المبارك ، والشّافعيّ ، وأحمد بن حنبل في روايةٍ عنه ، وإسحاق ابن راهُويَهْ ، وأبو عبيد القاسم بن سلاّم رحمهم الله[1].

وأهمّ ما في الأمر أنّ العلماء رحمهم الله تعالى قد أجمعوا على صحّة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسرّ ، ولله الحمد والمنّة[2] .

وللقرطبيّ في تفسيره رأيٌ في هذه المسألة نوافقه فيه ، ونحن مضطرون لنقل النّصّ المائل إلى الطّول نسبيّاً ، لأنّها مسألة مهمّة لم تتّفق بشأنها الآراء . يقول رحمه الله تعالى[3]: " الصّحيح من هذه الأقوال قول مالك (إمام دار الهجرة) لأنّ القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد ، وإنما طريقه التّواتر القطعيّ الذي لا يُختلف فيه . قال ابن العربيّ : ويكفيك أنّها ليست من القرآن اختلاف النّاس فيها ، والقرآن لا يختلف النّاس فيه . والأخبار الصّحاح التي لا نطعن فيها دالّةٌ على أنّ البسملة ليست بآيةٍ من الفاتحة ولا غيرها ، إلا في النّمل وحدها . روى مسلمٌ عن أبي هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله ﷻ قسمت الصّلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل . فإذا قال العبد : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، قال الله تعالى : حمدني عبدي . وإذا قال العبد : الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، قال الله : أثنى عليّ عبدي . وإذا قال العبد : مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ قال : مجّدني عبدي _ وقال مرّة : فوّض إليّ عبدي – وإذا قال : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل . فإذا قال : اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ . قال : هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل . فقوله سبحانه :

---

(1) تفسير ابن كثير ١ / ١٦ .
(2) تفسير ابن كثير ١ / ١٧ .
(3) تفسير القرطبي ص ٨١ .

قسمت الصّلاة ، يريد الفاتحة ، وسمّاها صلاة ، لأنّ الصّلاة لا تصحّ إلاّ بها . فجعل الثّلاث الآيات الأول لنفسه ، واختصّ بها تبارك اسمه ، ولم يختلف المسلمون فيها . ثمّ الآية الرّابعة جعلها بينه وبين عبده ، لأنّها تضمّنت تذلل العبد وطلب الاستعانة منه ، وذلك يتضمّن تعظيم الله تعالى . ثمّ ثلاث آيات تتمّة سبع آيات . ومما يدلّ على أنّها ثلاث آيات قوله : هؤلاء لعبدي . أخرجه مالك . ولم يقل : هاتان . فهذا يدلّ على أنّ أنعمت عليهم آية . قال ابن بكير قال مالك : أنعمت عليهم آية . ثمّ الآية السّابعة إلى آخرها . فثبت بهذه القسمة التي قسمها الله تعالى ، وبقوله عليه السّلام لأُبيّ : كيف تقرأ إذا افتتحت الصّلاة قال : فقرأت : الحمد لله ربّ العالمين حتّى أتيت على آخرها أنّ البسملة ليست بآيةٍ منها ، وكذا عدّ أهل المدينة وأهل الشّام وأهل البصرة . وأكثر القرّاء عدّوا أنعمت عليهم آية . وكذا روى قتادة عن أبي نضرة عن أبي هريرة قال : الآية السّادسة أَنعَمتَ عَلَيهِمْ. وأمّا أهل الكوفة من القرّاء والفقهاء فإنّهم عدّوا فيها : بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، ولم يعدّوا أَنعَمتَ عَلَيهِمْ.

ويرى القرطبيّ أنّها ثبتت في المصحف لكونها فاصلة بين السّور أو تبركاً بها . يقول[1]: " روى الصّحابة : كنّا لا نعرف انقضاء السّورة حتّى تنزل بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أخرجه أبو داود أو تبرّكاً بها، كما قد اتفقت الأمّة على كتبها في أوائل الكتب والرّسائل ".

وقد لخّص القرطبيّ هذا الرّأي الرّاجح في اعتقاده قائلاً[2] : " وجملة مذهب مالك وأصحابه أنّها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها. ولا يقرأ بها المصلّي في المكتوبة ولا في غيرها ، لا سرّاً ولا جهراً ، ويجوز أن يقرأها في النّوافل . هذا هو المشهور من مذهبه عند أصحابه. وعنه روايةٌ

---

(1) تفسير القرطبي ص ٨٢ .
(2) تفسير القرطبي ص ٨٣ .

أُخرى : إنّها تُقرأ أوّل السّورة في النّوافل ولا تُـقرأ أوّل أمّ القرآن. وروى عنه ابن نافع : ابتداء القـراءة بها في الصّلاة الفرض و النّفل ولا تترك بحال . ومِنْ أهـل المدينة من يقول : إنه لا بدّ فيها مـن : بـسم الله الرّحمن الرّحيم ، منهم ابن عمر ، وابن شهاب ، وبه قـال الشّافعيّ ، وأحمد ، وإسـحاق ، وأبـو ثور ، وأبو عبيد . وهذا يـدلّ على أنّ المسألة مسألةٌ اجتهاديّةٌ لا قطعيّة ".

فضل بسم الله الرّحمن الرّحيم :

عن ابن عبّاس أنّ عثمان بن عفّان سأل رسول الله ﷺ عن : بسم الله الـرّحمن الرّحيم فقال : هو اسـمٌ من أسماء الله ، وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القُرْب [1] وتُسـتَحبُّ في أوّل الخطبة لما جاء : كلّ أمر لا يبدأ فيه ببسم الله الرّحمن الرّحيم فهو أجـذم[2]. وتسـتحبّ البسمـلة عند دخول الخلاء ، لما ورد من الحديث في ذلك . وتستـحبّ في أوّل الوضوء لمـا جاء فـي مسند الإمـام أحمد والسُّنن من رواية أبي هريرة وسعيد بن زيد وأبي سعيد مرفوعاً لا وضوء لمـن لم يذكر اسـم الله عليه . وهـو حديثٌ حسن . . وهكذا تُـستحبّ عنـد الأكل . . وكـذلك تستحـب عند الجمـاع ، لما في الصحيحيـن عن ابـن عبّاس أن رسول الله ﷺ قال : لو أنّ أحـدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله ، اللهـمّ جنّبـنا الشّـيطان وجنّب الشّيطان ما رزقتنا ، فإنّه إن يقـدر بينهما ولدٌ لـم يضرّه الشيطان أبداً [3] وقال الطبـري فـي تفـسيره[4]: " إنّ الله تعـالى ذكـره ، وتقدّسـت أسماؤه ، أدّب نبـيّه محمّـداً ﷺ ، بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحـسنى ، أمام جميع أفعاله ، وتقدّم إليه في وصفه بها قبل جميع مهمّاته ، وجعل ما أدّبه مـن ذلك وعلّمه إيّاه منه لجميع خلقه ، سُنّةً يستنّون بها ، وسبيلاً يتّبعونـه عليهـا فـي افـتتاح أوائـل منطقهم وصدور رسائلهـم وكتبهـم وحاجـاتهم حتّـى أغـنت

---

(1) تفسير ابن كثير ١ / ١٧ .
(2) الأجذم في الأصل المقطوع اليد أو الذاهب الأنامل والمراد به هنا الناقص .
(3) تفسير ابن كثير ١ / ١٨ .
(4) ١ / ٣٨ .

دلالـــة مـــا ظهر مـــن قـــول القائـــل : بسم الله ، على ما بـــطن من مراده الـــذي هو محذوف ".

ونحـــن في دراستـــنا المتأمّـــلة لسورة الفاتحـــة الكريمة ، نـــبـــدأ قولاً وعملاً ببـــسم الله الرّحمن الرّحيم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنّ ابتداء السّورة الكريمة بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ والحثّ من قِبَل المصطفى ﷺ على أن يبدأ بذلك كلّ أمر ذي بال وإلاّ كان أمراً أبتر أو أجذم بمثابة الدّرس التّطبيقيّ للمسلمين بأنّ عليهم أن يربطوا كلّ أمورهم بالله تعالى . فمنه جلّ وعلا يستمدّون العون ، ويستلهمون السّداد في القول والإصابة في العمل ، وعليه يتوكّلون في كلّ ما يأتون من أعمال ، فلا حول ولا قوّة لهم إلاّ به عزّ وجلّ .

ما أخلق المسلمين لله ربّ العالمين، أنْ يجعلوا لسانهم رطباً بهذا التّعبير الطيّب : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ الذي هو جزءٌ من القرآن الكريم في سورة النّمل [1] ، والذي صدّرت به مائةٌ وثلاث عشرة سورةً من سور القرآن الكريم المائة والأربع عشرة ، لأنّ هذا التّعبير الطّيّب المبارك ، يجعل المسلم لله ربّ العالمين ، يحسّ في أعماقه ، حينما يكون هذا التّعبير الطّيّب جزءاً من معجمه اللُّغَويّ الملازم له ، بأنّ الأعمال التي يقوم بها ، ينبغي أن تكون مجانسةً في الطّيب لهذا التّعبير الطّيب ، ومن ثَمّ هو بعون الله تعالى ، لا يأتي من الأعمال إلاّ ما كان طيّباً ، وكيف لا يكون الأمر كذلك ، وإنّ المسلم لله ربّ العالمين ، يباشر كلّ عملٍ من أعماله اليوميّة ، متمثّلاً تلك المعاني السّامية التي تفيض من اشتمال هذا التّعبير الطّيّب المبارك على ثلاثة من أسماء الله تعالى الحسنى ، الله . الرّحمن . الرّحيم . وإنّ كلاً من هذه الأسماء الثّلاثة ، ليفيض بالكثير من المعاني الطّيّبة العطرة الجيّاشة التي تعجز النّفس عن الإحاطة بها ، فضلاً عن قدرة القلم على تحبير كلّ ما تحسّ به هذه النّفس أو بعضه .

---

(1) الآية ٣٠ .

وإذا كان الاسم الأوّل ، هو الاسم الأعظم للذّات العليّة ، التـي أوجـدت هـذا الإنسان من العدم ، وخلقـته في أحسن تقويم ، وأسبغت عليه نعمه ظاهرةً و باطنة ، وسخرّت له ما في السّماوات ومـا فـي الأرض ، فـإنّ إرداف هـذا الاسـم الأعـظـم ، باسمين آخرين للذّات العليّـة ، هما في الحقيقـة صفـتان لمعنـىً واحد ، يعتـبر الإنسان دائماً وأبداً في أمسّ الحاجة له ، وهذا المعنى هو الرّحمة .

إنّ المسلم لله ربّ العـالمين ، ليستشعر عظمة الله تعالى وهو يعطّر فمه كـلّ وقت بلفظ الجلالة " الله " وما أروعها عظمة ، تلك التي تمـلأ نفـس المسلم لله ربّ العالمين ، خشيةً لله تـعالى وحبّاً وإجلالاً، وقد قُرنت بنعمةٍ من أكبر نعم الله تعـالى على مخلوقاته ، تفتقر إليها الإنسانية افتـقارها للهواء والماء بل أشـدّ افتقـاراً . إنّ هذه النّعمة العظمى هي رحمة الله تعالى التي وسعت كلّ شيء. وما أكبر شعـور المسلـم لله ربّ العالمين وأعظمه، وقد هداه الله تعالى إلى سواء الـسّبيل ، حينمـا يكون هـذا الشّعور نابعاً من امتـنانٍ واعٍ لنعم الله تعالى عليه ورحمته التي تمثّلـت في نيله نصيبه من رحمة الله تعالى المهداة ، محمّد بن عبـد الله ﷺ ، النّور المبين ، والسّراج المنير ، سائلاً الله تعالى بحـرارةٍ وإخلاص من أعماقـه أن يديم عليـه نعمه الظّاهرة والباطنة ، وبخاصّـةٍ نصيبه من الرحمة التي وسعت كـلّ شـيء ، والتي أشار إليها مثلاً قوله تعالى من سورة الأعراف[1]: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . داعياً الله تعـالى مـن أعماقه أن تتسع دائرة الإيمان كي تتسع دائرة الرحمة كذلك . وقـد نـصّت الآيـة الكريمة التّالية من سورة الأعراف على طبيعة أولئك الذين ستشملهم بإذنـه تعـالى رحمة البرّ الرّحيم . قال تعـالى[2] : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا

---

(1) الآية ١٥٦ .
(2) سورة الأعراف ١٥٧ .

عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ وقد جاء في وصف عالمية الدعوة الإسلامية قوله تعالى في الآية الكريمة التالية مباشرة [1]: ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ .

وربما كان مفيداً أن نسجّل باختصارٍ مجمل آراء النحويين في متعلّق الباء في قوله تعالى : بسم الله . إنّ منهم من ذهب إلى أنّ المتعلّق اسم ومنهم من ذهب إلى أنّ المتعلق فعل . وقد علّق ابن كثير [2] على ذلك قائلاً: وكلٌّ قد ورد به القرآن . أمّا من قدّره باسم ، تقديره بسم الله ابتدائي ، فلقوله تعالى : ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﴾ ومَنْ قدّره بالفعل أمراً أو خبراً نحو ابدأ بسم الله ، أو ابتدأت بسم الله فلقوله تعالى :﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ [3].

وحيث إنّ لمنهجنا عنايةً خاصةً بالنّاحية البلاغيّة البيانيّة أو الإعجازيّة ، وحيث إنّ للزّمخشريّ يداً طُولى في هذا المضمار . فلْنُصْغِ إلى قوله في هذه المسألة يقول [4]: " فإن قلت : بمَ تعلّقت الباء قلت : بمحذوف تقديره بسم الله أقرأ أو أتلو ، لأنّ الذي يتلو التّسمية مقروء ، كما أنّ المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال : بسم الله والبركات ، كان المعنى ، بسم الله أحلّ ، وبسم الله أرتحل . وكذلك الذّابح وكلّ فاعلٍ يبدأ فعله ببسم الله ، كان مُضمِراً ما جعل التسمية مبدءاً

---

(1) سورة الأعراف ١٥٨ .
(2) تفسير ابن كثير ١ / ١٨ .
(3) لقد فصّل القرطبي في تفسيره ص ٨٦ القول في هذه المسألة .
(4) الكشاف ١ /٢٢ .

لـــه . ونظيره في حذف متعلّق الجارّ قوله عزّ وجلّ : في تسع آياتٍ إلـــى فرعـــون وقـــومه ، أي اذهـــب في تسع آياتٍ . وكذلك قـــول العـــرب في الدّعاء لِلْمُعْرِس : بالرّفاء والبنين . وقـــول الأعرابي : باليمن والبركة ، بمعنى أعرست أو أنكحـــت . ومنه قوله :

فقلت إلى الطّعام فقال منهم فريقٌ نحسد الإنس الطّعاما

فإن قلت : فلمَ قدّرت المحذوف متأخراً قلت : لأن الأهمّ من الفعل والمتعلّق به هو المتعلّق به ، لأنّـــهم كانوا يبدأون بأسماء آلهتهم فيقولـــون باســـم الّـــلات باســـم العـــزّى . فوجب أن يقصد الموحّد معنى اختصاص اســـم الله عزّ وجلّ بالابتداء ، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل ، كما فعل في قوله :﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ حيث صـــرّح بتقديـــم الاســـم إرادةً للاختـــصاص . والـــدّليل قولـــه :﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ فإن قـــلت " فـــقد قـــال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ فقـــدّم الفعـــل قلـــت : هناك تقديم الفعـــل أوقع ، لأنّهـــا أوّل ســـورةٍ نـــزلت ، فكـــان الأمـــر بالقـــراءة أهـــمّ ".

والاسم : هو اللّفظ الدّالّ بالوضع على موجودٍ في العيان إن كان محـــسوساً ، وفي الأذهان إن كـــان معقولاً ، من غير تعرّض ببنيتـــه للزّمـــان ومدلولـــه هـــو المسمّى[1] .

وقد اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين . فقـــال البصريّون : هو مشتقّ مـــن السّـــموّ ، وهو الـــعلوّ والرّفعة ، فقيل اسم[2] لأن التّسمية تنـــوية بالمسمّى وإشـــادةٌ

---

[1] البحر المحيط ١ / ١٦ .

[2] تفسير القرطبي ص ٨٨ .

بذكره [1] وقال الكوفيّون : إنه مشتقٌّ من السّمة، وهي العلامة، لأنّ الاسم علامةٌ لِمَنْ وُضِعَ له ، فأصل اسم على هذا وسم . والأوّل أصحّ ، لأنه يقال في التّصغير سميّ ، وفي الجمع أسماء. والجمع والتّصغير يردّان الأشياء إلى أصولها ، فلا يُقال: وسيم ولا أوسام[2].

والاسم أحد الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون [3] فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة ، لئلا يقع ابتداؤهم بالسّاكن إذ كان دأبهم أن يبتدئوا بالمتحرك ويقفوا على السّاكن لسلامة لغتهم من كل لُكنة وبشاعة ، ولوضعها على غايةٍ من الإحكام والرّصانة[4].

وحذفت الألف من بسم هنا في الخطّ تخفيفاً لكثرة الاستعمال[5].

وهذا تعليمٌ من الله تعالى عباده ليذكروا اسمه عند افتتاح القراءة وغيرها ، حتّى يكون الافتتاح ببركة الله جلّ وعزّ[6].

الله

اللّه علَمٌ على الرّبّ تبارك وتعالى . يقال إنه الاسم الأعظم ، لأنّه يوصف بجميع الصّفات كما قال تعالى : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

---

(1) الكشّاف ١ / ٢٩ .
(2) تفسير القرطبي ص ٨٨ .
(3) وهذه الأسماء العشرة مسموعة وهي : اسم وابنة وابنم وابنة وامرؤ وامرأة واثنان واثنتان وأيمن المختصة بالقسم . وما عدا ذلك فهمزته همزة قطع . انظر شذا العرف ص ١٤٨ .
(4) الكشّاف ١ /٢٨ .
(5) البحر المحيط ١ / ١٦ .
(6) تفسير القرطبي ص ٨٦ .

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فأجرى الأسماء الباقية كلّها صفات له كما قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : " إنّ لله تسعةً وتسعين اسماً ، مائةً إلاّ واحداً ، من أحصاها دخل الجنّة . . وهو اسمٌ لم يسمّ به غيره تبارك وتعالى[1].

والله أصله الإله[2] ونظيره النّاس أصله الأناس ، قال :

إنّ المنايا يطّلعْـ ـن على الأناسِ الآمنينا

فحذفت الهمزة ، وعوّض منها حرف التّعليل ، ولذلك قيل في النّداء : يا أله بالقطع ، كما يقال : يا إله[3].

والإله من أسماء الأجناس كالرّجل والفرس ، اسمٌ يقع على كلّ معبودٍ بحقٍّ أو باطل ، ثمّ غلب على المعبود بحقّ ، كما أنّ النّجم اسمٌ لكلّ كوكب ، ثمّ غلب على الثّريّا ، وكذلك السّنة على عام القحط، والبيت على الكعبة ، والكتاب على كتاب سيبويه . وأمّا الله ، بحذف الهمزة ، فمختصٌّ بالمعبود بالحقّ ، لم يُطلق على غيره[4].

وأصل الإله من أَلِهَ يَأْلَه ، إذا تحيّر . يريد إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله ، وغير ذلك من صفات الرّبوبيّة ، وصرف وَهْمَهُ إليها ، أبغض النّاس حتّى لا يميل قلبه إلى أحد [5] وروى المنذريّ عن أبي الهيثم أنّه سأله عن اشتقاق اسم الله تعالى في اللّغة فقال : كان حقُّه إلاه ، أُدخِلَت الألف واللاّم تعريفاً فقيل الإلاه . ثمّ حَذَفَت العرب الهمزة استثقالاً لها . فلمّا تركوا الهمزة حوّلوا كسرتها في اللاّم التي هي لام

---

(1) تفسير ابن كثير ١ / ١٩.
(2) الكشاف ١ / ٢٩.
(3) الكشاف ١ / ٣٠.
(4) الكشاف ١ / ٣٠.
(5) اللسان « اله ».

التّعريف ، وذهبت الهزة أصلاً فقالوا : ألِلاه ، فحركوا لام التعريف التي لا تكون إلاّ ساكنة ، ثمّ التقى لامان متحركان فأدغموا الأولى في الثانية فقالوا : الله . كما قال الله ﷻ : ﴿ لَٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾ معناه : لكن أنا[1] وقيل إنّ أصل إلاه ولاه ، فقلبت الواو همزة ، كما قالوا للوشاح إشاح ، وللوِجاح ، وهو السّتر إجاح . ومعنى ولاه ، أنّ الخلق يولهون له في حوائجهم ، ويضرعون إليه فيما يصيبهم ، ويفزعون إليه في كلّ ما ينوبهم ، كما يَوْلَه كلّ طفل إلى أمّه . وقد سمّت العرب الشّمس لمّا عبدوها إلهة . . ابن سيّده :

والإلهة والألوهة والألوهيّة : العبادة [2].

ومن هذا الاسم اشتقّ تألّه وأله واستأله ، كما قيل : استنوق واستحجر في الاشتقاق من النّاقة والحجر[3] وقد أضاف الزّمخشري[4] إلى ذلك قائلاً : " فإن قلت : هل لهذا الاسم اشتقاقٌ قلت : معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنىً واحد . وصيغة الاسم وصيغة قولهم أَلِهَ إذا تحيّر . ومن أخواته دَلِه[5] وعَلِه[6] ينتظمها معنى التّحيّر والدّهشة . وذلك أنّ الأوهام تتحيّر في معرفة المعبود ، وتدهش الفطن ، ولذلك كثر الضّلال ، وفشا الباطل ، وقلّ النّظر الصّحيح ".

وقد أضاف صاحب اللّسان[7] : " وأصله وَلِهَ يَوْلَه ولَهاً ، وقد أَلِهْتُ على فلان أي اشتدّ جزعي عليه مثل ولِهْت.. وقيل هو مأخوذٌ مِنْ أَلِهَ يَأْلَهُ إلى كذا ، أي لجأ إليه ، لأنّه سبحانه المفزع الذي يُلجأ إليه في كلّ أمر .. والتّألّه التّنسّك والتّعبُّد . والتّأليه التّعبيد " وقال أيضاً : " والله أصله إله ، على فعال ، بمعنى مفعول ، لأنّه مألوهٌ أي معبود . كقولنا إمَام فِعَال بمعنى مَفعُول ، لأنّه مُؤتَمٌّ به ."

---

(1) اللسان " أله " .
(2) اللسان " أله " .
(3) الكشاف 1 / 31 .
(4) الكشاف 1 / 31 .
(5) دله . كفرح : تحير أو جن عشقا أو عمّا القاموس .
(6) عله كفرح تحير ودهش وجاء وذهب فزعا القاموس .
(7) " أله " .

" فإن قلت : هل تفخّم لامه ، قلت : نعم ، قد ذكر الزّجّاج أن تفخيمهـا سُـنّة . وعلى ذلك العرب كلُّهم . وإطباقُهُم عليه دليلٌ على أنّهم ورثوه كابراً عن كـابر " [1] وقد قال الزّجاج [2] بشأن لفظ الجلالة " الله " : " واختلفوا في : هل هو مشتقّ أم غير مشتقّ . فذهبت طائفةٌ إلى أنّه مشتقّ . وذهب جماعةٌ ممن يوثق بعلمه إلى أنّه غيـر مشتقّ وعلى هذا القول المعوّل . ولا تعرّج على قول من ذهب إلى أنّه مشتقّ مـن وَلِه يَوْلَه " ونحن في حقيقة الأمر مع القائلين بأنّه مُشتَقّ .

---

[1] الكشّاف ١ / ٣٣ .
[2] تفسير أسماء الله الحسنى ص ٢٥ .

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من العلماء من ذهب إلى أنّ الرّحيم بمعنى الرّحمن[1] ولكنّ جمهورَ العلماء يرون أنّ الرحمن أشدّ مبالغة من الرّحيم ، وإن كان ثمّة قليلٌ من العلماء يرون صيغة المبالغة رحيم أشدّ مبالغةً من الصّيغة الأخرى الرّحمن[2].

ونحن نرى رأي جمهور العلماء . فلو أنّنا نظرنا إلى أسماء الله تعالى الحسنى الثلاثة في القول : بسم الله الرّحمن الرّحيم ، لاستطعنا أن ننتهي إلى أنّ هذا التّرتيب للألفاظ وفق المعنى الذي ذهب إليه جمهور العلماء ، يحقّق نوعاً لطيفاً من الترتيب المنطقي للمعاني ، من الجائز ألاّ نتبيّنه لو ذهبنا إلى أنّ رحيم أشدّ مبالغة من رحمن . وتفسير ذلك أن لفظ الجلالة " الله" هو اسم الله تعالى الأعظم ، بين التّسعة والتّسعين اسماً من أسمائه الحُسنى جلّ وعلا. ومعروفٌ أنّ لفظ الجلالة " الله " هو الاسم ، وأنّ ما عداه من أسماءٍ إنما هي صفات لله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد . وإنّ الابتداء بهذا الاسم الأعظم ، من الجائز أن يوحي بأنّ ما يليه من أسماءٍ في نسق ، ستتّجه من الأخصّ إلى الخاصّ إلى الأقل خصوصيّة . وبتدبّر هذه الأسماء الثلاثة الحُسنى ، الله ، الرّحمن ، الرّحيم ، من الجائز أن نتبيّن هذا التّدرّج المتّجه هذه الوجهة التي ذكرنا . وهنا نتبيّن أنّ لفظ الجلالة " **الله** " اسمٌ ينفرد به جلّ وعلا . كما نتبيّن في الاسم الآخر " **الرّحمن** " صفةً خاصةً به جلّ وعلا . حيث إنّ هذا الاسم ، الذي هو في حقيقته صفة ، يوحي بصفةٍ من صفات الذّات العليّة ، لا يصح أن يتّصف بها أيّ مخلوق ، وبالتالي لا يصحّ أن يتسمّى بها .

ومن هنا يتضح أنّ في لفظ الرّحمن ، من الرّحمة ، ما يليق به جلّ وعلا وحده لا شريك له . ومن الأدلّة على هذا النوع المعيّن من الرّحمة الخاصّ به جلّ وعلا ،

---

(1) من هؤلاء الجوهريّ . وانظر اللسان " رحم " وانظر البحر المحيط ١ / ١٦ ، ١٧ وتفسير القرطبي ص ٩١ .
(2) انظر البحر المحيط ١ / ١٧ .

هو أن آية سورة الإسراء جمعت بين هذين الاسمين العظيمين له جل وعلا ، وإنْ شئت قلت إنها جمعت بين عظيم الأسماء وعظيم الصفات. قال تعالى[1]: ﴿قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾.

فإذا تحوّلنا إلى الاسم الثّالث ، ذي صفة الرّحمة كذلك " الرّحيم " استطعنا أن نفهم منه نوعاً خاصّاً من رحمة الله تعالى بخلقه ، خاصّة وأننا بصدد إحدى صيغ المبالغة " فعيل "[2] . ومن المفهوم بداهة ، في ضوء هذا التّدرّج المنطقيّ للمعاني ، أنّ لفظ الرّحمن ، أشدّ مبالغة من الرّحيم ، وقد عبّر العلماء عن ذلك بالقول مثلاً [3]: " والله الرّحمن الرّحيم " بنيت الصّفة الأولى على فَعْلاَن ، لأنّ معناه الكَثْرة ، وذلك لأنّ رحمته وسعت كل شيء ، وهو أرحم الرّاحمين . فأمّا الرّحيم فإنّما ذُكر بعد الرّحمن ، لأنّ الرّحمن مقصور على الله ﷻ ، والرّحيم قد يكون لغيره . قال الفارسيّ : إنما قيل : بسم الله الرّحمن الرّحيم ، فجيء بالرّحيم بعد استغراق الرّحمن معنى الرّحمة لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾. كما قال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . ثم قال : ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ . فخصّ بعد أن عمّ ، لما في الإنسان من وجوه الصّناعة ، ووجوه الحكمة . ونحوه كثير. وقد اقتبس أبو حيّان في البحر المحيط[4] رأيا لابن سيده في الموضوع يقول : " والذي يظهر أن جهة المبالغة مختلفة ، فلذلك جمع بينهما . فلا يكون من باب التوكيد . فمبالغة فَعْلاَن . مثل غَضْبَان وسَكْرَان من حيث الامتلاء والغَلَبة . ومبالغة فَعِيل من حيث التّكرار والوقوع بمحالّ الرّحمة . ولذلك لا يتعدّى فَعْلاَن ويتعدّى فَعِيل . تقول: زيدٌ

---

(1) سورة الإسراء ١١٠ .
(2) انظر البحر المحيط ١ / ١٥ .
(3) اللسان " رحم " وانظر تفسير أسماء الله الحسنى ص ٢٨ .
(4) ١ /١٧ .

رَحِيمٌ المساكين . كما تعدّى فاعلاً . قالوا : زيدٌ حفيظٌ عِلْمَك وعِلْمَ غيرك . حكاه ابن سيـــده عن العرب " .

وإذا كنّا نرى أنّ لفظ الجلالة ، " الله " خاصّ بالمعبود بحقّ وحده لا شريك لـــه وأنّ لفظ الرّحمن وصفٌ خاصّ به جلّ وعلا ، فإن ممّا هو معمّق لحقيقـــة التّـــدرّج المعنويّ وقيمته ، هو أنّ صفة الرّحيم تستعـــمل لغيره ﷺ ، وربما كـــان لطيفـــاً أن نبيّن أن رب العزة قد خلع على حبيبه المصطفى ﷺ في القرآن المجيد اســـمين مـــن أسمائه جلّ وعلا ، أحدهما الرّحيم . قال عزّ من قائـــل[1] : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾. وقد وصـــف الله تعالى في كتابه العزيز غيره ببعض أسمائه ، كما قال تعالى[2] : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ يقول ابن كثير في هذا الشأن[3] : " والحاصـــل أن من أسمائه تعالى ما يسمّى به غيره . ومنها ما لا يسمّى به غيره كاسم الله والرّحمن والخالق والرّازق ونحو ذلك . فلهذا بدأ باسم الله ، ووصفه بالرّحمن ، لأنّه أخـــصّ وأعرف من الرّحيم . لأنّ التّسمية أوّلاً إنّما تكون بأشرف الأســـماء . فلهـــذا ابتـــدأ بالأخصّ فالأخصّ " وهكذا يتبيّن أنّ الرّحمن الرّحيم ، اسمان مشتقّان مـــن الرّحمـــة على وجه المبالغة . ورحمن أشدّ مبالغة من رحيم [4] وأنّ الرّحمن لم يـــستعمل فـــي غيره عزّ وجل . وأمّا قول بني حنيفة في مسيلمة الكذّاب . رحمن اليمامة ، فبابٌ من تعنّتهم في كفرهم[5] ويقول العلماء : إنّ الزّيادة في البناء لزيادة المعنى[6] ولذلك قالوا في معنى الاسمين : ومعنى الرّحمن عند أهل اللّغة ذو الرّحمة ، التي لا غاية بعدها في الرّحمة ، لأنّ فعلان ، بناءٌ من أبنية المبالغة ورَحِيم ، فَعِيل ، بمعنى فَاعِل ، كما قالوا : سَمِيع بمعنى سَامِع وقَدِير بمعنى قَادِر[7] قال الأزهري : ولا يجوز أن يقال :

---

(1) سورة التوبة ١٢٨ .
(2) سورة الإنـــسان ٢ .
(3) تفسير ابن كثير ١ / ٢٦ .
(4) تفسير ابن كثير ١ / ٢٠ .
(5) الكشّاف ١ / ٣٥ .
(6) الكشّاف ١ / ٣٤ .
(7) اللسان " رَحِمَ " .

رحمـــن إلاّ الله ﷻ . وفَعْلان من أبنية ما يبالغ في وصفه ، فالرّحمن ، الّذي وسعت رحمته كلّ شيء ، فلا يجوز أن يقال رحمن لغير الله "[1].

ومن اللطيف أن نسجّل ملحةً للزّمخشريّ بشأن زيادة البناء لزيادة المعنى وقـد أشار إليها في الكشّاف[2] بالقول : " ومما طنّ على أذني من ملح العرب أنهم يسمّون مركباً من مراكبهم بالشّقدف ، وهو مركبٌ خفيفٌ ليس في ثقل محامل العراق . فقلت في طريق الطائف لرجلٍ منهم : ما اسم هذا المِحْمل ؟ أردت المحمـل العراقـيّ ، فقـال : أليس ذاك اسمه الشّقدف ؟ قلت : بلى ، فقال : هذا اسمه الشّقنداف ، فـزاد في بناء الاسم لزيادة المسمّى " .

والرّحمة : الرّقة والتّعطّف والمغفرة . وقوله تعالى في وصف القرآن : ﴿ هُدىً وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، أي فصّلناه هادياً وذا رحمة[3].

وقد استفاد فريقٌ من العلماء في تفسير معنى كل من الرّحمن والرّحيم من أثـر ينسـب إلى المصطفى ﷺ ، يقول أبو حيّان في البحـر المحـيط[4] : " وروى ابـن مسعـود وأبـو سعـيد الخدريّ أن رسول الله ﷺ قال : " الرّحمن رحمن الـدّنيا ، والرّحيم رحيم الآخرة " وإذا صحّ هذا التّفسير وجب المصير إليه " وقيل : الـرّحمن الذي رحم كافّة خلقه ، بأن خَلَقَهم وأوسع عليهم في رزقهم[5] ، والرّحيم خاصّ فـي رحمته لعباده المؤمنين ، بأن هداهم إلى الإيمان ، وهو يثيبهم في الآخـرة بـالثّواب الدّائم الّذي لا ينقطع[6] وقد قال الزّمخشريّ [7] : فإن قـلت : فلِمَ قدّم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه ، والقياس التّرقّي من الأدنى إلى الأعلى كقـولهم : فلانٌ

---

(1) اللسان " رَحِمَ " .
(2) ١ / ٣٤ .
(3) انظر اللسان " رحم " .
(4) ١ / ١٧ والنظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٠ فثمة أثر في المعنى ذاته ينسب إلى عيسى ابن مريم عليه السّلام .
(5) انظر مثلاً البحر المحيط ١ / ١٧ .
(6) تفسير أسماء الله الحسنى للزجّاج ص ٢٨ وانظر البحر المحيط ١ / ١٧ .
(7) الكشّاف ١ / ٣٦ .

عالم بحرير وشجاعٌ باسلٌ وجوادٌ فيّاضٌ . قلت : لمّا قال : الرّحمن ، فتناول جلائل النّعم وعظائمها وأصولها ، أردفه الرّحيم ، كالتّتمّة والرّديف ليتناول ما رقّ منها ولطف ".

" فإن قلت : ما معنى وصف الله تعالى بالرحمة ، ومعناها العطف والحنوّ، ومنها الرّحم لانعطافها على ما فيها قلت : هو مجازٌ على إنعامه على عباده ، لأن الملك إذا عطف على رعيّته ورقّ لهم أصابهم بمعروفه وإنعامه ، كما أنه إذا أدركته الفظاظة والقسوة عنف بهم ومنعهم خيره ومعروفه " [1].

[1] الكشاف ١ / ٣٦ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

الحمد لله رب العالمين

الحمد والمدح أخوان[1] والحمد نقيض الذّمّ . ويقال حمِدتُهُ على فعلـه . ومنـه المَحْمَدَة ، خلاف المَذَمَّة[2] والحمد ، الثّناء على الجميل منْ نعمةٍ أو غيرها باللسان وحده[3] وإذ قد يتعلّق المدح بالجماد فتمدح جوهرة ولا يقال : تحمد[4] ومن العلماء من ذهب إلى كون الحمد والشّكر بمعنىً واحد[5] ولكن جمهور العلماء يرون أن بين الحمد والشكر نوعاً من فرق . يقول مثلاً ابن كثير في تفسيره[6] : " اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخّرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللاّزمة والمتعدّية . والشّكر لا يكون إلاّ على المتعدّية ، ويكون بالجَنان[7] واللسان ، والأركان ، كما قال الشاعر:

أفادتكم النّعماء مني ثلاثةً يدي ولساني والضمير المحجّبا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعمّ ، الحمد أو الشكر ، على قولين . والتّحقيق أنّ بينهما عموماً وخصوصاً . فالحمد أعمّ من الشكر ، من حيث ما يقعان عليه ، لأنّه يكون على الصّفات اللاّزمة والمتعدّية ، تقول : حمِدته لفروسيّته ، وحمِدته لكرمه ، وهو أخصّ ، لأنّه لا يكون إلا بالقول ، والشّكر أعمّ من حيث ما يقعان عليه ، لأنه يكون بالقول ، والفعل ، والنّيّة ، كما تقدّم . وهو أخصّ ، لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدّية . لا يقال : شكرته لفروسيّته . وتقول : شكرته على كرمه وإحسانه إليّ . هذا حاصل ما حرّره بعض المتأخرين ، والله أعلم ".

---

(1) الكشاف ١ /٣٧ .
(2) اللسان " حمد " .
(3) البحر المحيط ١ /١٨ .
(4) البحر المحيط ١ / ١٨ .
(5) انظر البحر المحيط ١ / ١٨ وتفسير الطبري ١ / ٤٦ واللسان " حمد " .
(6) ١ /٢٢ .
(7) الجنان : القلب .

ولا شك أنّ هذا تحريرٌ موفّق . وبهذا يتبين أنّ الحمد يكون باللسان وحده ، أما الشكر فيكون بالقلب واللسان والجوارح ، وعلى النّعمة بخاصّة.

وإذا كان الحمد نقيضه الذّمّ ، فإن الشّكر نقيضه الكفران[1] وممّا هو دليل على أنّ الحمد أعمّ من الشكر ، رغم تقاربهما في المعنى ، الحديث النبويّ الشّريف : الحمد رأس الشّكر. ما شكر الله عبدٌ لا يحمده . كما أن كلمة الإخلاص رأس الإيمان . وإنّما كان رأس الشكر ، لأنه فيه إظهار النّعمة والإشادة بها ، ولأنّه أعمّ منه ، فهو شكرٌ وزيادة ، وفي حديث الدّعاء : سبحانك اللهم وبحمدك . أي وبحمدك أبتدئ [2].

والألف واللام في الحمد ، لاستغراق جميع أصناف الحمد[3] ويقول أبو حيّان[4] : " والحمد مصدر معرّفٌ بأل . إمّا للعهد ، أي الحمد المعروف بينكم لله . أو لتعريف الماهيّة ، كالدّينار خير من الدّرهم ، أي أيّ دينار كان ، فهو خير من أيّ درهم كان ، فيستلزم إذ ذاك الأحمدة كلها . أو لتعريف الجنس ، فيدل على استغراق الأحمدة كلها بالمطابقة ". وقد قال ابن جرير الطبريّ في تفسيره [5] : " الحمد لله ، الشكر خالصاً لله جلّ ثناؤه دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كلّ ما يرى من خلقه ، بما أنعم على عباده من النّعم التي لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، في تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح أجسام المكلّفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرّزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم لذلك عليه ، و مع ما نبّههم عليه ، و دعاهم إليه ، من الأسباب المؤدّية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم ، فلربّنا الحمد على ذلك كلّه ، أوّلاً و آخراً ".

---

(1) الكشاف ١ /٣٨
(2) اللسان " حمد " .
(3) انظر البحر المحيط ١ / ١٨ والمنثور لابن كثير ١ / ٢٣ والمنير القرطبي ص ١١٦ وقد أضاف القرطبي : " فهو سبحانه يستحق الحمد بأسمائه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلى " .
(4) البحر المحيط ١ / ١٨
(5) ١ / ٤٦ .

وثمّة العديد من الأحاديث النّبويّة الشّريفة التي تبيّن قيمة حمد الله تعالى وثواب الحامدين [1] فمن حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدريّ عن النّبيّ ﷺ قال : إذا قال العبد : الحمد لله ، قال : صدق عبدي الحمد لي ، وروى مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها .. وروى ابن ماجة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ما أنعم الله على عبد نعمةً فقال : الحمد لله ، إلا كان الذي أعطى أفضل ممّا أخذ . وفي نوادر الأصول عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : لو أنّ الدّنيا كلّها بحذافيرها بيد رجل من أمّتي ثم قال : الحمد لله ، لكانت الحمد لله أفضل من ذلك . وروى ابن ماجة عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ حدّثهم أنّ عبداً من عباد الله قال : يا ربّ ، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فعضّلت بالملكين[2] ، فلم يدريا كيف يكتبانها ، فصعدا إلى السماء فقالا : يا ربّنا ، إنّ عبداً قال مقالة لا ندري كيف نكتبها . قال الله – وهو أعلم بما قال عبده – ماذا قال عبدي . فقالا يا ربّ ، إنّه قد قال : يا ربّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها[3] وروى مسلم عن أبي مالك الأشعريّ قال : قال : رسول الله ﷺ : الطّهور شطر الإيمان . والحمد لله تملأ الميزان . وسبحان الله والحمد لله تملآن ، أو تملأ ما بين السماء والأرض . وذكر الحديث[4] .

وقد أجمع القرّاء السبعة وجمهور النّاس على رفع الدال من الحمدُ لله[5] وقد قال أبو حيّان[6] : " وقراءة الرفع أمكن في المعنى ، ولهذا أجمع عليها السبعة ، لأنّها تدلّ على ثبوت الحمد واستقراره لله تعالى ، فيكون قد أخبر بأن الحمد مستقرّ لله تعالى ،

---

(1) الأحاديث من تفسير القرطبي ص ١١٤ ، ١١٥ .
(2) أعضل الأمر : اشتدّ واستغلق ، والمعضلات ، بتشديد الضاد ، الشدائد ، وعضلت المرأة والشاة إذا نشب ولدها فلم يسهل مخرجه ، بتشديد الضاد أيضاً ، تفسير القرطبي ص ١١٥
(3) وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٣ .
(4) تفسير القرطبيّ ١١٥ .
(5) تفسير القرطبيّ ص ١١٨ وانظر البحر المحيط ١ / ١٨ واللسان " حمد " فهذا رأي القرّاء في إجماع القرّاء على الرّفع : والكشاف ١ / ٣٨ .
(6) البحر المحيط ١ / ١٨ .

أي حمده وحمد غيره ، ومعنى اللام في لله الاستحقاق " ويقول الزّمخشري[1] معلّلاً لقراءة الرفع في " سلام " من قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ ﴾ رفع السلام الثاني للدّلالة على أن إبراهيم عليه السلام حيّاهم بتحيّة أحسن من تحيّتهم ، لأنّ الرّفع دالٌّ على معنى ثبات السّلام لهم ، دون تجدّده وحدوثه ، وأضاف بشأن قراءة الرفع ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ " و المعنى نحمد الله حمداً . ولذلك قيل : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ".

ربّ العالمين :

لفظ الرّبّ له معانٍ ثلاثة ، فيكون بمعنى :

أ . **المالك** . يقال : ربّه يربُّه ربّاً ملكه . والعباد مربوبون لله ﷻ ، أي مملوكون .

ب . **السيد المطاع** . قال الله تعالى :[2] ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾ أي سيّده .

ج . **المصلح** . يقال : ربّ الشيء إذا أصلحه . وربّ ولده والصّبيّ يربُّه ربّاً بمعنى ربّاه ، والمطر يربّ النّبات والثّرى وينمّيه[3].

وقد يتصرّف أيضاً معنى الرّبّ في وجوه غير ذلك ، غير أنّها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة . فربّنا جلّ ثناؤه السّيّد الذي لا شبه له ولا مثل في سؤدده ، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه ، والمالك الذي له الخلق والأمر[4] وقد جاء في لسان العرب[5] : والرّبّ : يطلق في اللغة على المالك والسّيّد والمدبّر والمربيّ والقيّم والمنعم . ولا يطلق على غير مضاف إلاّ على الله ﷻ . وإذا أطلق على غيره أضيف فقيل : ربّ الدّار وربّ النّاقة[6] وربّ : مصدر وصف به للمبالغة[7] على أحد وجوه الوصف بالمصدر . أو اسم فاعل حذفت ألفه . فأصله

---

(1) الكشاف ١ / ٣٩ .
(2) سورة يوسف ٤١ .
(3) انظر اللسان " ربب " .
(4) تفسير الطبري ١ / ٤٨ .
(5) " ربب " .
(6) انظر اللسان " ربب " والكشاف ١ / ٤٣ والبحر المحيط ١ / ١٩ وتفسير القرطبي ص ١١٩ وتفسير ابن كثير ١ / ٢٣ .
(7) انظر الكشاف ١ / ٤٢ .

رابّ ، كما قالوا : رجلٌ بارٌ وبرٌ[1] واختُلف في اشتقاقه فقيل : إنه مشتقّ من التّربية . فالله سبحانه وتعالى مدبّرٌ لخلقه ومربيهم . ومنه قوله تعالى : ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم﴾ فسمّى بنت الزوجة ربيبة ، لتربية الزوج لها . فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل . وعلى أن الرب بمعنى المالك والسيد ، يكون صفة ذات[2].

وإذا كان لفظ العالمين جمعاً لعالم ، والعالم جمع لا واحد له من لفظه كالأنام والرّهط والجيش ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جمع لا واحد له من لفظه[3] وكان مأخوذاً من العَلَم والعلامة ، لأنه علامةٌ على مُوْجده ودليلٌ عليه . كما قال الزّجّاج[4] ففي ضوء السياق نستطيع أن نفهم المعاني المختلفة للفظ العالمين . وكأنه بذلك من المشترك اللّفظي . لقد اختلف أهل التأويل في العالمين اختلافاً كثيراً ، فقال قتادة : العالمون جمع عَالَم ، وهو كلّ موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم[5] وقيل : أهل كل زمان عالم ، قال الحسين بن الفضل ، لقوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أي من الناس[6] ومن البيّن أن لفظة العالمين في هذا السياق ، الذي يتحدث عن قوم لوط عليه السلام تعني الذّكران فعلاً . وقال ابن عباس : العالمون الجن والإنس . ودليله قوله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ولم يكن نذيراً للبهائم[7] ومن البيّن أن لفظة العالمين في هذا السياق تعني الإنس والجن ، لأنه ﷺ إنما بُعث لهذين النوعين من الخلق . وقد تحدثت سورتا الأحقاف والجن على وجه الخصوص ، عن الجن واستماعهم للقرآن الكريم ، يرتّله المصطفى ﷺ ترتيلاً ، وتوليهم إلى قومهم مبشرين ومنذرين ، وقال الفرّاء وأبو عبيدة : العالم عبارةٌ عمّن يعقل ، وهم أربعة أمم ،

---

(1) البحر المحيط ١ / ١٩ .
(2) تفسير القرطبي ١١٩ .
(3) تفسير الطبري ١ /٤٨ .
(4) تفسير القرطبي ص ١٢١ وانظر اللسان " علم " .
(5) تفسير القرطبي ص ١٢٠.
(6) تفسير القرطبي ص ١٢٠ .
(7) تفسير القرطبي ص ١٢٠ .

الإنس والجن والملائكة والشياطين[1] ومن البيّن أن هذا الرأي يأخذ في الاعتبار الذين يصحّ أن يوجه إليهم الإنذار وينفعهم .

ونحن إذا نظرنا إلى الآية الكريمة من سورة الفاتحة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ نستطيع أن نتبين أنها تتحدث عن كل مخلوقات الله تعالى التي خلقها وقدرها وهيأها للقيام بوظائف معينة وسخرها ، مما يعتبر علامة بيّنة على رب العالمين وعلماً دالاً على وجود الخالق الصانع الواحد ، كما قال ابن المعتز :

فيا عجباً كيف يُعْصى الإلـ ـــه أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء لـه آيـــةٌ تـــدلّ على أنـــه واحد[2]

وفي ضوء ما سبق نستطيع أن نوافق القرطبي الذي قال في تفسيره[3] : " قلت : والقول الأوّل أصح هذه الأقوال ، لأنه شامل لكل مخلوق و موجود . دليله قوله تعالى[4] ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ثم هو مأخوذ من العَلَم والعلامة ، لأنه يدل على مُوجده ، كذا قال الزّجّاج . وقد جمع لفظ العالمين ليشمل كل جنس ممّا سمّي به[5] والعَالَم اسمٌ بُنِيَ على مثال فَاعَل ، كما قالوا خَاتَم وطَابَع و دَانَق[6] ولا يُجمع شيء على فَاعَل بالواو والنون إلا هذا[7] وأل في العالمين لاستغراق الجنس[8] ويقول الطبري في تفسيره[9] : " والعَالَم اسمٌ لأصناف الأمم ، وكلّ صنفٍ منها عالم . وأهل كل قرنٍ من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان . فالإنس عالم ، وكل أهل زمان منهم عالم ذلك الزمان ، والجن عالم . وكذلك سائر أجناس الخلق ، كل جنس منها عالم زمانه . ولذلك جمع

---

(1) تفسير القرطبي ص ١٢٠ وابن كثير ١ / ٢٣ والصنف الأخير : ولا يقال للبهائم عالم " .
(2) تفسير ابن كثير ١ / ٢٤ وانظر معاني أخرى للفظ عالم ص ٢٣ .
(3) ص ١٢١ .
(4) سورة الشعراء ٢٣ ، ٢٤ .
(5) الكشاف ١ / ٤٣ .
(6) اللسان " علم " بفتح التاء والباء والنون .
(7) اللسان " علم " .
(8) البحر المحيط ١ / ١٩ .
(9) ١ / ٤٨ .

فقيل : عالمون ، وواحده جمـــع ، لكون عالم كل زمان من ذلك عالم ذلك الزّمان . ومن ذلك قول العجّاج :

* فخندفٌ هامة هذا العالم *

فجعلهم عالم زمانه . وهذا القول الذي قلناه قول ابن عباس وسعيد بـــن جبيـــر ، وهو معنى قول عامة المفسرين ".

ونحن نود أن نردف هذه الدراسة ، التي كانت العناية فيها واضحة من الوجهة اللّغوية والبيانية ، إلى تبـــيين الدروس التي يمكن أن تُستَـــفاد من الآية الكـــريـــمة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهي على النحو التالي :

١ . إن الآية الكريمة كلها : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يصح أن يقال إنها تجـــري مجرى المثل . كما أن صدرها ﴿ الْحَمْدُ لِلَّه ﴾ يصح هو الآخـــر أن يجـــري مجـــرى المثـــل ، بل ينبغي أن يكون جزءاً لا يتجزأ من المعجم اللغوي لكل مـــسلمٍ لله ربّ العالمين . وإذا صحّ اقتطاع صدر الآية الكريمة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّه﴾ فما أكثر مـــا يجـــري على لسان كلّ مسلم لله رب العالمين ، جزءٌ آخر مُكْملٌ وهو القول : (والشكر لله) وبذلك يكون القول كاملاً : الحمد لله والشكر لله ، شاملاً لقمّتي الثناء على الله تعالى ، اللتين يعبّر عنهما بالحمد لله والشكر لله ، فقد عرفنا من قبل أنهما يعطيان معاً صورة كاملة لما ينبغي للعبد أن يقوم به دائماً و أبداً تجاه خالقه جلّ وعلا .

ونحن في قراءتنا للآية الكريمة كلها ، أو لصدرها ، بصدد درس من أعظـــم الدروس القرآنية التي ينبغي على المسلم لله ربّ العالمين أن يعيها تمـــام الـــوعي ، وهـــاهي ذي سورة الفاتحة ، تلقي على كل مسلم رب العالمين ، هذا الدرس الـــذي يعبّر المسلم بواسطته عن بعض ما يجب عليه تجاه خالقه ورازقه ومحييه و مميته ،

وتجاه النعم الكثيرة التي أفاءها الله تعالى عليه ، والتي لا يستطيع الإنسان ، وإن حرص ، بنصّ القرآن الكريم ، أن يحصيها . وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يحصي نعم الله تعالى عليه ، فكيف يستطيع أن يقوم بما يجب عليه إزاءها من شكر لله تعالى وثناء وحمد ؟

ومع ذلك فإن ربّ العزّة البرّ الرّحيم.، اللّطيف الرؤوف بعباده ، يهديهم إلى سواء الصراط ، ويلقّن الإنسان بعض ما ينبغي عليه أن يقول من حمد لله تعالى وحده لا شريك له ، لأنه هو المنعم المتفضل على الإنسان ، وهو الذي جعل الناس لبعضهم سخرياً ، يستوي في ذلك حاكمهم ومحكومهم ، رفيعهم ووضيعهم ، وهو الذي سخّر للإنسان كل ما في السماوات وما في الأرض ، فله ﷻ ينبغي أن يكون الحمد خالصاً.

ولا يقف الحمد عند الشكر باللسان ، بل ينبغي أن يترجم إلى عمل ، وأن يكون هذا العمل شاهد صدق على أن المسلم لله رب العالمين ، قد وعى الدرس القرآنيّ ، في كون الحمد إنما ينبغي أن يكون في كل صوره لله تعالى . ومن أوضح الميادين التي يتجلّى فيها الحمد لله رب العالمين على حقيقته ، ميدان العبادة في الإسلام ، التي تمتد كي تشمل كل ميادين العقيدة والسلوك والمعاملة . وبعبارة أخرى ، إنّ ميدان العبادة ، بمعناها الواسع في الإسلام ، ينبغي أن يتجلى فيه حمد الله تعالى وشكره على نعمه وآلائه . والمعروف أن كل عمل طيب يقوم به الإنسان ، وهو يريد به وجه ربه الأعلى ، يعتبر داخلاً في مفهوم العبادة في الإسلام . بما في ذلك لقمة الطعام التي يضعها المرء في فم زوجته ، وهو يريد بذلك إرضاء ربه الأعلى ، كما جاء في الحديث الصحيح . فكي يكون المرء حامداً لله تعالى ، ينبغي أن يريد بكل أقواله وأفعاله ، أحاسيسه ومشاعره وانفعالاته ، وجه ربه الأعلى . وإذا تحقق بعون الله تعالى ذلك ، يكون ما يصدر من أعماق الإنسان قائلاً : " الْحَمْدُ

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " ، أو " الحمد لله " أو الحمد لله والشكر لله ، فيه الدليل الشاهد على صحة الفهم للقول ، وهو العمل الصالح الذي حثّ الإسلام الإنسان عليه دائماً وأبداً.

٢ . إذا كان بالإمكان أخذ درس من الآية الكريمة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أو من صدرها " الحمد لله " في وجوب شكر الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله ، فإن عجزها يمكن أن يؤخذ منه درس ذو شقين ، أو درسان عظيمان ، أما الدرس الأول فيؤخذ من لفظة الرب . وأما الدرس الثاني فيؤخذ من لفظة العالمين . وفي الإمكان أن يقال ابتداءً عن هذين الدرسين العظيمين إن أحدهما يتعلق بالرب الواحد والإله الواحد والمعبود الواحد ، فعلى كل البشر ، وهم الذين كرمهم الله تعالى وحباهم بنعمه العظيمة وآلائه الجسيمة وحملهم في البر والبحر ، ورزقهم من الطيبات وفضّلهم على كثير ممّن خلق تفضيلاً ، أن يعوا هذه الحقيقة جيّداً ، فهم إخوةٌ من زاوية كون ربهم واحداً فيجب أن يترجموا هذه الحقيقة التي عرفوا إلى عملٍ بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وبذلك تتحقق إحدى دعامتين تعتبران أهم الدعامات التي يقوم عليها الأمن والسلام في العالم . وهذه الدعامة يمكن أن يعبّر عنها كما قال العلاّمة أبو الحسن النّدويّ[1] وحدة الربوبية . كما أن في الإمكان أن يقال إنّ ثاني الدّرسين يتعلّق بالأخوّة الإنسانيّة أو وحدة البشريّة ، لأنّ البشر جميعاً الذين تعنيهم لفظة العالمين ، إنما هم جميعاً مشتركون في الأب الواحد والأمّ الواحدة ، وبناءً على ذلك فلا مجال للتفاخر والتّكاثر بالأموال والأولاد والأوطان والدماء والألسنة والألوان ، إن كل هذه الأعراض ينبغي ألا تتلهّى بها البشرية عن الحقائق الأزلية ، من كونهم جميعاً مخلوقين لرب واحد ، من ذكر وأنثى ، فلا فضل لعربيّ على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .

---

[1] الأركان الأربعة ص ٣٩ .

وهكذا يتبين أنّ الإنسان أخو الإنسان من جهتين ، والإنسان أخو الإنسان مرتين . مرّة وهي الأساس ، لأن الرب واحد . ومرة ثانية لأنّ الأب واحد[1] وإن هذه النظرة الإنسانية السامية الخالدة قد بينها الإسلام وعمقها . وحث على التأدّب والتمسك بها والعض عليها بالنواجذ . إنه فيما يتصل بالرب الواحد والأصل الواحد يجيء قوله تعالى في سورة النساء[2]: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ وفيما يتصل بتبيين الحكمة من جعل الناس وهم أبناء الأب الواحد والأمّ الواحدة ، مختلفين في هيئة الشعوب والقبائل ، وتعيين المقياس الفصل في التفاضل . يقول عز من قائل[3]:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ وقد بينت هذه الآية الكريمة من سورة الرّوم أنّ اختلاف الألسنة والألوان من آيات الله تعالى . فلا ينبغي أن يكون مقياساً لرفع بعضٍ وخفض بعض . قال عز من قائل[4]: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ إن هذه الحقائق ينبغي أن يعيها الخلق وأن يحسنوا التصرف والعمل وفق ذلك الوعي والعلم . وقد جاء في هذه المعاني قوله عز من قائل في سورة فاطر[5]: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ إن على كل إنسان أن يعرف أصله القريب والبعيد على حدّ سواء . وقد قال عز من قائل في سورة الفرقان[6]: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ

---

(1) الأركان الأربعة ص٣٩ وانظر هذا ص٦٧من طريق الهجرتين وباب المتعلقين لابن القيم فإن ثمة كلاماً قيماً مفاده أن إبليس تعبد توحيد الألوهية وإبليس تستهين توحيد الربوبية.
(2) الآيـــة ١
(3) سورة الحجرات ١٣ .
(4) الآيـــة ٢٢ .
(5) الآية ٢٧ ، ٢٨ .
(6) الآيـــة ٥٤ .

بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ وفي سورة السّجدة جاء قوله تعالى[1] : ﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۞ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۞ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾.

وإنّ واجب كل إنسان خصّه الله تعالى بشيء من فضله أن يتّخذ من ذلك حافزاً له على مضاعفة شكره وحمده لله تعالى ، لا أن يتخذ من ذلك وسيلة للفرح والمرح والفخر وتصعير خدّه للناس . وقد جاء في سورة الزخرف[2] قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾.

وفي هذه المعاني الإنسانية النبيلة جاء قوله ﷺ في حجة الوداع[3]: " إن الله قد أذهب عنكم عصبيّة الجاهليّة وفخرها بالآباء . وإنما هو مؤمنٌ تقيّ أو فاجر شقيّ . الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، لا فضل لعربيّ على أعجميّ إلا بالتقوى ".

إنّ هذه المعاني الإنسانية النبيلة التي جاء بها الإسلام ، حينما تتفهمها البشرية وتحولها إلى عمل ، فإن الأمن والسلام بعون الله تعالى سيسودان العالم كله ، بدلاً من الخوف والهلع والجزع والقلق وغير ذلك من مظاهر الشقاء التي تعاني منها الإنسانية اليوم ، وستظلّ تعاني ما دامت هذه المعاني التي جاء بها الإسلام لا يراد لها أن تفهم أوّلاً يراد لها أن تتحول إلى عملٍ و واقع . وإن واجب المسلمين لله رب العالمين أن يبادروا هم أوّلاً إلى تطبيق هذه التعاليم الإسلامية الإنسانية السامية ،

---

[1] الآيات ٦ - ٩ .
[2] الآية ٣٢ .
[3] روى الحديث الترمذي وغيره عن النبيّ .

وأن يحرصوا على التمسك بها ، والدعوة إليها ، والحثّ عليها ، والـذّبّ عنهـا . والله من وراء القصد . قال عز من قائـل : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

الرَّحْمَـنِ الرَّحِيـــمِ

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سبق لنا أن تحدّثنا عن هذين الاسمين العظيمين للذّات العليّة ، أثناء حديثنا عن البسملة : بسم الله الرّحمن الرّحيم . ونحن نودّ أن نتحدّث عن الاسمين اللذين تتكون منهما الآية الكريمة : ﴿ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾ ومن زاوية العلاقة المعنوية ، بين الآية الكريمة وبين ما سبقها ولحق بها . وإنّ أوّل ما نودّ الحديث فيه هو أنّنا بشأن البسملة التي تتضمّن هذين الاسمين العظيمين للذات العليّة : بسم الله الرّحمن الرّحيم ، سبق أن لاحظنا التدرّج المعنويّ والتّحوّل المنطقيّ من الاسم الأعظم للذات العليّة ، إلى الاسم الذي يدلّ على صفة تحتاج لها المخلوقات دائماً وأبداً ، وهي صفة الرّحمة التي تنوع التعبير عنها ، المتدرّج كذلك من عموم الرّحمة ، إلى خصوصها ، إثر التحوّل من خاصّ الاسم " الله " إلى خاصّ الصفة " الرّحمن " . ومعنى هذا أنّ هذه الأسماء الثّلاثة : الله الرّحمن الرّحيم ، يتم فيها التّحوّل من الأخصّ إلى الذي يليه في الخصوصيّة وهكذا .

فما الذي يلاحظ من هذه الزّاوية ذاتها حينما ننظر للآيتين الأوليين معاً من سورة الفاتحة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ الذي يلاحظ هو أنّنا حاليّاً بصدد أربعة أسماء للذّات العليّة لا ثلاثة ، أمّا هذه الأربعة فتتكوّن من ذات الأسماء الثّلاثة السّابقة . بزيادة الرّبّ ؛ أو ربّ العالمين . وما الّذي يلاحظ على ترتيب هذه الأسماء الأربعة ؟ الّذي يلاحظ أنّ ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ جاء في التّرتيب ثانياً . ومعنى هذا أن أخصّ أسماء الذّات العليّة ، وهو لفظ الجلالة " الله " جاء في موضعه أوّلاً . وأنّ " الرحمن " و " الرحيم " قد جاءا متلاصقين كالمرّة السابقة ، وفي موضعهما السّابق ذاته ، أي في الموضعين الثّالث والرّابع ، وما الذي يمكن أن يقال في مجال تبيين الحكمة من هذا التّرتيب للأسماء ؟ حينما نضع هذه الأسماء الأربعة للذّات العليّة في نسق ، و وفق الترتيب في الآيتين الكريمتين : الله ، ربّ العالمين ،

الرّحمن ، الرّحيم ، يلاحظ أنّنا الآن بصدد نوع آخر من التّدرّج المعنويّ غير بعيد من سابقه . وتفسير ذلك هو أنّ لفظ الجلالة " الله " الذي هو الاسم الوحيد بين الأسماء الحسنى الأخرى الّتي كلّها صفات ، يوحي لمتدبّره ، بكلّ المعاني التي يمكن للمرء أن يفهمها من تدبّر أسماء الله تعالى الحُسنى . فإذا تحوّلنا إلى الاسم التّالي في السّياق ، ربّ العالمين ، تبيّنّا أنّنا بصدد أُولى صفات المدح للذّات العليّة ، وبتدبّرنا لهذه الصّفة المرتبطة بلفظ الرّبّ.، وهي بمعنى السّيّد أو بمعنى المالك أو بمعنى المعبود ، تبيّن أنّها قادرةٌ على الإدلاء بالمعنيين المتقابلين اللذين يرتبطان في العادة بها ، وهما التّرغيب والتّرهيب ، إيصال الخير وإيصال الشّرّ ، فلا رادّ لقضائه ﷻ ، ولا معقّب لحكمه . وممّا يعمّق هذه المعاني المتقابلة لفظة العالمين من القول " ربّ العالمين " التي توحي بالصفات المتباينة لتلك المخلوقات التي لا يحيط بها علماً إلاّ خالقها ومدبّرُها جلّ وعلا . وكأنّنا الآن ونحن بصدد هذه الصّفة ، ربّ العالمين ، أمام تجاذب للأحاسيس والمشاعر والعواطف ، بين الرّجاء والخوف ، بين الرّغبة والرّهبة ، يحدث كل ذلك أمام أُولى الصّفات الثّلاث في نسق ، بعد لفظ الجلالة " الله ".

وبما أنّ رحمة الله تعالى قد سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت عذابه ، خاصّةً ونحن أمام السّورة الكريمة التي قسمها البرّ الرّحيم نصفين ، بينه وبين عباده ، لذا نتبيّن أن ذلك التّوزّع في العواطف بين التّرغيب والتّرهيب ، ما لبث أن تحوّل في تدرّج معنويّ لطيف ، إلى التّرغيب الخالص ، بسبب الرّحمة الخالصة ، التي تتجلّى في كلّ من الرّحمن والرّحيم ، وسبق أن لاحظنا أنّ لفظة الرّحمن قادرةٌ على أن تشمل كلّ الخلق ، وإنّ هذا العموم لصفة الرّحمة يتمشّى مع لفظة العالمين الواسعة المدى . كما لاحظنا أنّ لفظة الرّحيم قادرةٌ على الإيحاء بأنّها خاصّةٌ بالمؤمنين . ومعنى هذا أنّها من ناحية تتمشّى مع العموم الذي تفيده لفظة العالمين ، لأنّها تشمل الموحّدين المتّقين بطبيعة الحال ، كما أنّها من ناحيةٍ أُخرى تحقّق التّدرّج في الخصوصيّات المعنويّة التي يوحي بها السّياق . فنحن بصدد خصوصٍ في الرّحمة

بعد عموم . كما أنّها من ناحيةٍ ثالثة ، في تحقيقها خصوص الرّحمة ، تشمل ، على الخصوص ، الفئة الأولى المستفيدة من هذه الدّروس القرآنية ، تلك الفئة ، التي تستحقّ ، بفضل الله تعالى ، قبل سواها ، رحمة البَرّ الرّحيم . وما أعذب هذا النّوع الخاصّ من الرّحمة ، حينما يخالط شغاف قلوب المسلمين لله ربّ العالمين المؤمنين المتّقين ، الحريصين على ذلك ، العاملين من أجله ، الذين يتوزّعهم دائماً ، الرّجاء والخوف ، لأنّ المفروض في المؤمن أن يكون حذراً ، لأنّه يعلم أنّه إنّما يدخل الجنّة بعفو الله تعالى في المقام الأوّل وبعد أن يتفضّل ربّ العزّة بقبول أعماله الصّالحة ، وقد جاء في سورة المؤمنون ما يفيد خوف المؤمنين المتّقين ألاّ يتقبل الله تعالى أعمالهم الصّالحة . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾.

أما وقد أصبحت الرّحمة الخالصة الخاصّة بالمؤمنين حقيقة واقعة ، فما أحرى هؤلاء المؤمنين المتّقين أن يزداد حمدهم لله تعالى وثناؤهم عليه بما هو أهله جلّ وعلا ، ويتحقّق ذلك في المقام الأول بفعل أوامر الله تعالى وأوامر حبيبه المصطفى ﷺ ، واجتناب ما نهى الله تعالى عنه ونهى حبيبه المصطفى ﷺ . وبهذا يتجلّى بعض مظاهر الإعجاز القرآنّي في عرضه البديع العجيب المعجز للمعاني.

وإذا كنا نظرنا إلى الآية الكريمة : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ من زاوية ما سبقها بحيث تجلّى التّدرج الرّائع في العرض المنطقّي للمعاني ، فإنّا نودّ أن ننظر إلى الآيتين الكريمتين من زاوية ما يجيء بعدهما من آيتين كريمتين أو آيات كريمات . إنّ أوّل ما لاحظنا بشأن ذكر أسماء الله تعالى الحُسنى في نسق : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ هو التّدرّج من الألوهيّة المطلقة والسّيادة الأبديّة والمُلْك الأزليّ ، وذلك يستفاد من لفظ الجلالة " الله " ومن القول " رَبِّ الْعَالَمِينَ " إلى

[1] سورة المؤمنون ٦٠.

الرّحمة المطلقة في صورتيها العامّة والخاصّة . فإذا نظرنا إلى الآيتين التّاليتين بعد ذلك . تبيّنا أن أولى الآيتين الكريمتين تتمشّى مع الألوهية المطلقة والسّيادة الأبديّة والملك الأزليّ . قال تعالى : ﴿ مالك يوم الدّين ﴾ وتبيّنا أنّ ثانية الآيتين الكريمتين وما لحق بهما ممّا هو مكمّل لمعناها ومبيّن لمرماها ، تتمشّى مع الرّحمة المطلقة . قال تعالى : ﴿ اهدنا الصّراط المستقيم ۞ صراط الذين أنعمت عليهم ۞ غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين ﴾ . يقول في هذا الشأن أبو حيّان[1]: والترتيب القرآني جاء في غاية الفصاحة ، لأنّه تعالى وصف نفسه بصفة الربوبيّة . وصفة الرّحمة ، ثمّ ذكر شيئين ، أحدهما ملكه يوم الجزاء ، والثاني العبادة . فناسب الربوبيّة الملك ، والرّحمة العبادة . فكان الأوّل للأوّل . والثّاني للثّاني ". ويقول القرطبيّ في تفسيره[2] : " وصف نفسه تعالى بعد ربّ العالمين ، بأنه الرّحمن الرّحيم ، لأنّه لمّا كان في اتّصافه بربّ العالمين ترهيب ، قرنه بالرّحمن الرّحيم ، لما تضمن من التّرغيب ، ليجمع في صفاته بين الرّهبة منه والرّغبة إليه ، فيكون أعون على طاعته وأمتع ، كما قال تعالى : ﴿ نبّئ عبادي أنّي أنا الغفور الرّحيم ۞ وأنّ عذابي هو العذاب الأليم ﴾[3] وقال : ﴿غافر الذّنب وقابل التّوب شديد العقاب ذي الطّول ﴾[4] وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد . ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرّحمة ما قنط من جنّته أحد ".

---

(1) البحر المحيط ١ / ٢٠ .
(2) ص ١٢١ .
(3) سورة الحجر ٤٩ ، ٥٠ .
(4) سورة غافر ٣ .

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

قرأ بعض القرّاء ملك يوم الدّين ، وقرأ آخرون مالك . وكلاهما صحيحٌ متواتر في السّبع[1] وقد رجّح كلاً من القراءتين مرجّحون من حيث المعنى ، وكلتاهما صحيحة حسنة[2] ويقول الزّمخشريّ[3]. " وملك هو الاختيار ، لأنه قراءة أهل الحرمين . ولقوله : لمن المُلك اليوم . ولقوله : ملك النّاس .ولأنّ المِلْك (بكسر الميم) يعمّ . والمُلك (بضم الميم) يخصّ " . ونحن في حقيقة الأمر نودّ أن نبيّن رأياً عنّ لنا بشأن أمثال هذه الترجيحات بين القراءات ، وهو رأي يوجّهُ إلينا قبل سوانا ، فقد سبق لنا أن قمنا أحياناً بعمليّة التّرجيح هذه . أمّا هذا الرأي فمفاده أنّه ما دامتْ هذه القراءات المتواترة ، قرأ بها المصطفى ﷺ تبعاً لقراءة جبريل عليه السلام ، أمين الله تعالى على وحيه ، فهل لنا من حقّ تجاه هذه القراءات يتجاوز التّثبّت مِنْ كون هذه القراءة أو تلك قد ثبت قراءة المصطفى ﷺ بها ؟ ومن الجائز وراء ذلك أن نبيّن المعنى الذي تفيده هذه القراءة أو تلك . الذي يلوح هو أنّ حقّنا يقف عند التّثبت من كون القراءة قد قرأ بها المصطفى ﷺ أما مسألة ترجيح قراءة ثابتة عن المصطفى ﷺ على قراءة أُخرى ثابتة هي الأخرى ، فالذي يبدو أنّ هذا ليس حقاً لنا نحن البشر .

وقد أحصى أبو حيّان[4] ثلاث عشرة قراءة ، بعضها راجعٌ إلى المُلك ، (بضم الميم) وبعضها إلى المِلك (بكسر الميم) . وقد قال الأخفش : يقال : مَلِك من المُلْك بضمّ الميم . ومَالِك من المِلْك بكسر الميم وفتحها . وزعموا أنّ ضمّ الميم لغةٌ في هذا المعنى[5] وقد فصّل أبو حيّان الحديث بشأن هذه القراءات . وهذا ما قاله

---

(1) تفسير ابن كثير ١ / ٢٤ .
(2) تفسير ابن كثير ١ / ٢٤ .
(3) الكشاف ١ / ٤٥ .
(4) البحر المحيط ١ / ٢٠ .
(5) البحر المحيط ١ / ٢١ .

بشأن القراءات الثلاث المشهورة[1]: " قرأ مَالِك ، على وزن فَاعِل بالخفض ، عاصم ، والكسائيّ ، وخلف في اختياره ، ويعقوب. وهي قراءة العشرة إلاّ طلحة والزبير . وقراءة كثير من الصّحابة ، منهم أُبَيّ وابن مسعود ، ومعاذ ، وابن عبّاس ، والتّابعين ، منهم قتادة والأعمش .

. وقرأ مَلِك على وزن فَعِل بالخفض باقي السّبعة وزيد وأبو الدّرداء وابن عمر والمسوّر و كثير من الصّحابة والتّابعين .

وقرأ مَلْك ، على وزن سَهْل ، أبو هريرة ، وعاصم الجحدريّ ، ورواها الجعفيّ وعبد الوارث عن أبي عمرو ، وهي لغة بكر بن وائل .. " .

والملك في الحقيقة هو الله ﷻ: قال الله تعالى[2]: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ ﴾ وفي الصّحيحين عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً : أخنع اسمٍ عند الله رجلٌ تسمّى بملك الأملاك ، ولا مالك إلاّ الله . وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال : يقبض الله الأرض ويطوي السّماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ أين الجبّارون ؟ أين المتكبّرون ؟ وفي القرآن العظيم ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [3] فأمّا تسمية غيره في الدّنيا بملك ، فعلى سبيل المجاز ، كما قال تعالى [4]: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ ﴾ [5] ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾[6] وفي الصحيحين : مثل الملوك على الأسرّة[7] وقال أصحاب المعاني : الملك النّافذ الأمر في مُلكه ، إذ

---

(1) البحر المحيط ١ / ٢٠ .
(2) سورة الحشر ٢٣ .
(3) سورة غافر ١٦ .
(4) سورة البقرة ٢٤٧ .
(5) سورة الكهف ٧٩ .
(6) سورة المائدة ٢٠ .
(7) تفسير ابن كثير ١ / ٢٥ .

ليس كلّ مالك يَنْفُذ أمرُه وتصرّفه فيما يملكه . فالملك أعمّ من المالك ، والله تعالى ملك المالكين كلّهم . والمُلاّك إنّما استفادوا التّصرّف في أملاكهم من جهته تعالى[1] .

وأصل المَلْك (بفتح الميم وسكون اللاّم) في الكلام ، الرّبط والشّدّ . يقال : ملكت العجين أملكه ملكاً إذا شددت عجنه[2] وقال قيس بن الخطيم[3] الشاعر الأوسيّ الجاهلي :

ملكت بها كفّي فأنهرت فتقها يرى قائماً من دونها ما وراءها

وإملاك المرأة من هذا ، إنّما هو ربطها بالزّوج[4] .

وقال القرطبيّ [5] : " إن وُصف سبحانه بأنّه ملك ، كان ذلك من صفات ذاته ، وإن وُصف بأنّه مالك ، كان من صفات فعله ".

واليوم عبارةٌ عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشّمس ، فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدّارين فيهما[6] والدّين : الجزاء في الخير والشّر[7] والحساب والقضاء[8] ومعاني هذه الثّلاثة متقاربة[9] وجاء في لسان العرب[10] : " والدِّين الجزاء والمكافأة . وَدِنْتُهُ بفعله دَيْنا (بفتح الدّال) جزيته . وقيل : الدَّين (بفتح الدال) المصدر ، والدِّين (بكسر الدّال) الاسم .. ويوم الدّين يوم الجزاء . وفي المثل : كما تدين تدان ، أي كما تُجْازِي تُجَازَى . أي تجازَى بِفِعْلِك وبِحَسَب ما عَمِلْت . وقيل : كما تَفْعَل يُفْعَل بِك .. وقوله

---

(1) تفسير أسماء الله الحسنى ص ٣٠ .
(2) تفسير أسماء الله الحسنى ص ٣٠ .
(3) البحر المحيط ١ / ٢٠ وانظر الأغاني (دار الكتب ٣ / ٣ وفيه يرى قائم وقبله :
طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذ لولا الشعاع أضاءها
يريد لولا تفرّق الدّم وانتشاره ، وهذا هو معنى الشّعاع بفتح الشين ، لأضاءها النفذ حتى تستبين . وأكمل المعنى في البيت التالي فالذي يقف دون الطعنة يرى خلالها لاتساعها ما وراءها . وهذا ضرب من المبالغة .
(4) تفسير أسماء الله الحسنى ٣٠ .
(5) تفسير القرطبي ص ١٢٤ .
(6) تفسير القرطبي ص ١٢٤ وانظر البحر المحيط ١ / ٢٢ .
(7) صحيح البخاري ٦ / ٢٠ .
(8) انظر البحر المحيط ١ / ٢١ وتفسير القرطبي ١٢٥
(9) تفسير القرطبي ١٢٥ .
(10) " دين " .

تعالى[1] : ﴿ إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أي مجزيّون محاسبون . ومنه الدّيّان في صفة الله ﷻ . وفي حديث سلمان إنّ الله ليدين للجمّاء من ذات القرن ، أي يقتصّ ويجزي .. والدّين الحساب . ومنه قوله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وقيل : معناه مالك يوم الجزاء . وقوله تعالى[2] : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أي ذلك الحساب الصّحيح والعدد المستوي ". وفي الحديث : الكَيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . أي حاسب نفسه بنفسه . كما قال عمر ﷺ : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا . وتأهّبوا للعَرْض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾[3] ويقول ابن كثير[4] : " وتخصيص الملك بيوم الدّين لا ينفيه عمّا عداه ، لأنّه قد تقدّم الإخبار بأنّه ربّ العالمين ، وذلك عامّ في الدّنيا والآخرة . وإنّما أُضيف إلى يوم الدّين لأنّه لا يدّعي أحدٌ هنالك شيئاً . ولا يتكلّم أحد إلاّ بإذنه كما قال تعالى[5]: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ وقال تعالى[6] : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ وقال تعالى[7] :﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾.

ويقول أبو حيّان[8] : " وفائدة تخصيص هذه الإضافة ، وإن كان الله تعالى مالك الأزمنة كلّها والأمكنة ومن حلّها والملك فيها ، التّنبيه على عظم هذا اليوم بما يقع فيه من الأمور العظام ، والأهوال الجسام ، من قيامهم فيه لله تعالى ، والاستشفاع لتعجيل الحساب ، والفصل بين المحسن والمسيء واستقرارهما فيما وعدهما الله تعالى به ، أو على أنّه يومٌ يرجع فيه إلى الله جميع ما ملّكه لعباده وخوّلهم فيه ،

---

(1) سورة الصافات ٥٣ .
(2) سورة يوسف ٤٠ .
(3) سورة الحاقة ١٨ .
(4) تفسير ابن كثير ١ / ٢٤ .
(5) سورة النبأ ٣٨ .
(6) سورة طه ١٠٨ .
(7) سورة هود ١٠٥ .
(8) البحر المحيط ١ / ٢٢ .

ويزول فيه ملك كلّ مالك . قال تعالى[1] : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[2] ويقول[3] : " ولمّا اتّصف تعالى بالرّحمة انبسط العبد ، وغلب عليه الرّجاء ، فنبّه بصفة الملك أو المالك ، ليكون من عمله على وجل ، وأنّ لعمله يوماً تظهر له فيه ثمرته من خيرٍ وشرّ ".

وسنحاول أن نبيّن في هيئة نقاط بعض الدّروس التي يمكن أن تستفاد من الآية الكريمة ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

١- الآية الكريمة تشير إلى يوم القيامة الذي ستتمّ فيه محاسبة الخلائق على كلّ ما صدر عنهم من خير أو شرّ فإثابتهم أو معاقبتهم ، ومعروفٌ أنّ الحياة الأخرى لا تنفصل عن الأولى في يقين المسلم لله ربّ العالمين ، لأنّ الحياة الأولى ليست سوى الطّريق الذي ينبغي أن يقطع ويتزوّد فيه للآخرة .

ومِنْ هنا ينبغي على المسلم لله ربّ العالمين ، أن يُحْسن انتقاء الزّاد الذي يتزوّد به من أجل الآخرة ، ومن هنا كان الاهتمام باليوم الآخر جزءاً لا يتجزّأ من كيان المسلم لله ربّ العالمين ، الذي يخشى ربه ويخاف يوم الحساب . وقد جاء في أوّل سورة البقرة[4] قوله تعالى : ﴿ الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾.

٢- إنّ إيمان المسلم لله ربّ العالمين بيوم القيامة ، لا يقف عند الإيمان بوجود ذلك اليوم ، إنّما يشمل كلّ متعلّقاته التي وصلت عن طريق القرآن الكريم والحديث النبويّ

---

(١) سورة مريم ٩٥.
(٢) سورة الأنعام ٩٤.
(٣) البحر المحيط ١ / ٢٣.
(٤) الآيات ١ - ٤.

الشّريف . وفي مقدّمة هذه المتعلّقات الإيمان المطلق بأنّ ربّ العزّة وحده لا شـــريك له هو الملك الحقيقي في ذلك اليوم العصيب ، وهو المالك لكلّ أُمـــور ذلـــك اليـــوم المجموع له النّاس المشهود . وإنّ ربّ العزّة ليلقّن المسلم لله ربّ العالمين في هـــذه الآية الكريمة ما يقول بشأن الحياة الأخرى ، التي هي جزءٌ لا يمكن أن ينفصل بحالٍ من الأحوال من أعماق المسلم ويقينه .

٣- إنّ حديث هذه الآية الكريمة : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ عن الحياة الأخرى خالصاً ، إثر حديث الآيتين الكريمتين السّابقتين عن الحياة الأولى غالباً ، يكمل به مـــا ينبغـــي أن يعيه جيّداً كلّ مسلم لله رب العالمين ، مِنْ كون الحياتين متّصلتين في حقيقتهما ، لأنّ الفاصل بينهما وهو الموت آتٍ لا محالة ، وستذوقه كلّ نفس . وبهذا يتبيّن أنّ الآيـــة الكريمة مكملةٌ لما ينبغي أن يفهمه المسلم ويعيه ، ممّا له أكبر الأثر في حياته الأولى والثّانية ، باعتبار الإيمان بالحياة الأخرى خادماً لها ، وهي التـــي فيهـــا الجـــزاء ، وللحياة الأولى ، وهي التي فيها العمل . ولا يكون الجزاء إلاّ من جنس العمل تماماً كما لا يكون الثّمر والشّجر إلاّ من جنس البذور .

ولو أنّنا نظرنا إلى الآية الكريمة هذه ، التي تتحدّث عن يوم القيامة ، بالقيـــاس إلى الآيتين الكريمتين السّابقتين ، والمعروف أنّ هذه الآيات الكريمة تـــشكّل القـــسم الذي أشار الحديث القدسيّ إلى أنّه خاصٌّ بالله جلّ وعلا ، لتبيّنا ، إضافة إلى الشّمول الذي تتّسم به الآيات في جمعها بين الحياتين ، الأولى والثانية في نـــسق ، أنّ للآيـــة الثالثة حظّها الموفور من المعاني التي تتضمّنها الآيتان الأوليان اللّتان تتحدّثان فـــي المقام الأوّل عن الحياة الأولى . وتفسير ذلك أنّ الآية الكريمـــة الأولـــى ، بعـــد تقريرها أنّ الحمد لله ، تشير إلى شمول نعم الله تعالى وآلائه ، وهي نعم وآلاء تغطّي الحياة الأولى وتشمل الحياة الثانية ، في حقّ المسلم لله ربّ العـــالمين علـــى وجـــه الخصـــوص ، الذي تشمله نعم الله تعالى وآلاؤه في ذلك الموقف العصيب ، في هيئة

المظاهر المتعدّدة لرحمة الله تعالى البّر الرّحيم بعباده ، وهذا هو ما أشارت إليه الآية الكريمة الثّانية . وهكذا يتبيّن أنّ بين الآيات الكريمات اشتراكاً في المعنى أو ترابطاً معنوياً ، وقد تبيّن في العرض المتدرّج الشّامل للمعاني ، مراعاته الدّقيقة ، ليس للتّرتيب الزّمنيّ فقط ، وإنّما لترتيب جزئيّات المعاني داخليّاً ، وفق ترتيب ظهورها وظهور الحاجة إليها ، من نعمٍ وآلاء في الدّنيا لا تُحْصى ، إلى رحمة عامّةٍ بالخلائق ، فرحمة خاصةٍ بالمؤمنين . وللنّعم والآلاء والرّحمة قيمتها في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود ، ولكنّ الرّحمة بالذّات هي التي تحتاج إليها الخلائق قبل غيرها ، وقد جاء الحديث في السّياق عن الرّحمة ، قريباً في المكان والشّكل من الحديث عن اليوم الآخر ، ممّا هو معمّقٌ لمضمون الرّحمة التي يفتقر إليها الخلائق آنذاك أشدّ افتقار . وممّا هو معمّقٌ لحاجة الخلائق آنذاك للرّحمة ، وموضّحٌ للدّور البليغ الذي تقوم به الآية الثّانية : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ بسبب منزلتها بين الآيتين اللّتين يغلب على أولاهما الارتباط بالحياة الأولى ، بينما ترتبط الآية التّالية بالحياة الأخرى ، هو أنّ لفظة ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ يكثر ورودها هي بالذّات ، في المواطن من القرآن الكريم التي يكون فيها حال الخلائق عصيباً ، وبالتّالي هم في أمسّ الحاجة إلى الرّحمة . و من ذلك قوله تعالى[1] : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً ﴾ وقوله تعالى[2]: ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً ﴾ وقوله تعالى[3] : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ وقوله تعالى[4] : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً ﴾ وقوله تعالى[5]: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾ وقوله تعالى[6] : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾ وقوله تعالى[7]: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ وقوله

---

(1) سورة طه ١٠٨ .
(2) سورة مريم ١٨ .
(3) سورة مريم ٤٥ .
(4) سورة مريم ٦٩ .
(5) سورة مريم ٨٧ .
(6) سورة مريم ٩٣ .
(7) سورة طه ١٠٩ .

تعالى[1] : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وقوله تعالى[3] : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ وقوله تعالى[4] : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ .

إنّ العباد أمس الخلق حاجةً إلى رحمة البرّ الرّحيم ، حاجتهم إلى نعمه جلّ وعلا وآلائه . وقد شملت الآيات الكريمات الثّلاث تلك الحاجة في الدّنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾.

---

[1] سورة الفرقان ٢٦ .
[2] سورة يس ٥٢ .
[3] سورة الملك ٢٠ .
[4] سورة النبأ ٣٨ .

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

ثمّة مجموعة من الأمور والدّروس التي يمكن أن تُلاحظ بشأن الآية الكريمة وهي على النّحو التّالي :

١. بعد أن كان الحديث في الآيات السّابقة مستعملاً ضمير الغائب ، إذا هو يتحوّل مستعملاً ضمير المخاطب . ويمكن أن يقال في هذا الصّدد ، إنّنا إزاء هذا الانتقال من ضمير إلى آخر ، وهو ما يسمّى في البلاغة بالالتفات ، بصدد نوع من التفنّن في القول والتّنويع في التّعبير . والمعروف أنّ هذا النّوع من التّعبير قادرٌ على شدّ انتباه السّامع وتجديد نشاطه لمتابعة الحديث . ويلاحظ أنّنا بصدد نوع من الالتفات يتمّ فيه التّحوّل من حال للضّمير عاديّة ، هي حال الضّمير الغائب ، الذي يفهم من القول : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ . إلى حال أُخرى للضّمير قويّة ، هي حال الضّمير المخاطب ، ولا ننسى أنّ أهمّ شروط الالتفات ، وهو كون العائد عليه الضّمير واحداً ، متوفر في السّياق الذي نحن بصدده . والمعروف أنّ ثمّة درجات ثلاثاً للضّمير تتّجه نحو القوّة باضطراد ، وهي على النّحو التّالي ، الغائب ، المخاطب ، المتكلّم .

ونحن إذا نظرنا إلى الالتفات الذي نحن بصدده استطعنا أن نفهم العديد من الفوائد الأخرى والمعاني الثانوية ، وأوّل ما يمكن أن يلاحظ هنا تقديم اسم الضّمير إيّاك ، دليلاً على الاختصاص وكونه جلّ وعلا هو وحده المعبود بحقّ . وما قيل عن العبادة يقال عن الاستعانة في القول : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وإنّ الالتفات من ضمير للغائب إلى ضمير للمخاطب ، كأنّه يفيد أنّ المسلم لله ربّ العالمين ، الذي يرتّل هذه الآية الكريمة ، قد ارتفعت منزلته ، وسمت مكانته ، بسبب امتثاله لأوامر الله تعالى

ربّ العالمين الرّحمن الرّحيم ، واجتنابه لنواهيه عزّ وجلّ الكبير المتعال ، وكأنه قد أصبح قريباً من الحضرة الرّبّانية ، التي يلقّن المسلم في السّورة الكريمة مستقبلاً ، كيفيّة الدّعاء للوصول إلى ذلك . وبسبب ذلك القرب الذي انتهى إليه لإيمانه وعمله بما علم وتقواه ، أصبح أهلاً لأن يخاطب ربّ العزّة وقد اقترب من حضرته جلّ وعلا ، في الطّريقة التي تلقّنه إيّاها الآية الكريمة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

٢. ونحن إذا نظرنا إلى الآية الكريمة من زاوية ما سبقها من آيات ، وبخاصّة الآية الثّالثة في السّورة الكريمة : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ فإنّا نتبيّن أنّ بينهما علاقةً متينةً جدّاً ، بحيث إنّا نُحِسُّ بأنّ صدر الآية الكريمة يأخذ بِحُجْزَةِ عجز الآية السّابقة . وتفسير ذلك أنّ الآية الكريمة السّابقة : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ تتحدّث عن يوم القيامة الذي لا ينفع الإنسان فيه مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم . وهذا معناه أنّ أهمّ القضايا التي ينبغي أن يهتمّ لها كلُّ إنسان في حياته الدّنيا ، باعتبار أنّ ثمّة بعثاً وحساباً ، ثواباً وعقاباً ، هو جانب العقيدة والدّين والعبادة . ومن أوضح الأدلّة على أنّ جانب الدّين ينبغي أن يكون مقدّماً على جانب الدّنيا ، هو أنّ مفهوم العبادة في الإسلام ، يحيل أعمال الإنسان الصّالحة إلى عبادة مكملةٍ لأركان الإسلام الرّئيسيّة ، بحيث إنّ كلّ عملٍ طيّب يقوم به المرء وهو يريد وجه ربّه الأعلى ، بما في ذلك استمتاعه بما أحلّ الله تعالى له دون إسراف ، يعتبر داخلاً في مفهوم العبادة . ومن هنا يتبيّن أنّ الدّين هو المهمّ في مجال الفصل نظريّاً بين الدّين والدّنيا ، لأنّ مثل هذا الفصل بين الدّين والدّنيا ، ليس موجوداً ولا معروفاً في الإسلام ، الذي يعتبر الحياة الدّنيا طريقاً موصلاً إلى الآخرة ، كي ينتفع الإنسان في ذلك المستقرّ من طبيعة الزّاد التي تزوّد بها في الحياة الدّنيا وكميّتها . أما وقد تبيّن أنّ الدّين والعقيدة والعبادة ، هي الأمور المهمّة بالنّسبة للمسلم لله ربّ العالمين ، فإنّا نودّ أن ندوّن الآيات الكريمة الأربع ، كي يتبيّن حظّ الآخرة والعبادة الموفور . قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ إنّ العناية بالعبادة تأتي في صدر الآية الكريمة ، قريباً من عجز السّابقة التي تتحدّث عن يوم القيامة ، يوم الحساب والجزاء .

٣. إذا كان الدّين مقدَّماً على الدّنيا في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لأنّ ذلك هو المهمّ ، ولأنّ التّرابط بين الآيتين الكريمتين يبدو أشدّ وضوحاً ، فإنّ عجز الآية الكريمة يُعْطى لكلٍّ من الدّين والدّنيا نصيبهما . قال تعالى : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لأنّ الاستعانة بالله تعالى تكون على أُمور الدّين والدّنيا معاً . وسبق أن لاحظنا بشأن الآيات السّابقة أنّ الدّين كذلك هو المهمّ ، وأنّ يوم القيامة هو الذي ينبغي للمسلم لله ربّ العالمين أن يأخذه في الاعتبار جيّداً . قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

٤. جمعت الآية الكريمة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بين العبادة وبين طلب الاستعانة من الله تعالى على أُمور الدّين والدّنيا . بين الهدف الذي خُلِق من أجله الإنسان ، وهو عبادة الله تعالى ، كما قال عزّ من قائل[1] : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ولا شكّ أنّ العبادة هي الأمر المهمّ – وبين الوسيلة التي يتمّ بها الحصول على المطلوب من خيري الدّنيا والآخرة . ولا شكّ أنّ العناية بالهدف والحرص على بلوغه هو الأهمّ . ولذلك تقدّمت الإشارة إليه أوّلاً وذلك في القول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ بينما تأخّرت الإشارة المتضمّنة طلب العون منه جلّ وعلا ، على الوصول إلى ذلك الهدف النّبيل والغاية السّامية . وقد جاء في تفسير ابن كثير[2] : " وإنّما قدّم

---

(1) سورة الذاريات ٥٦ .
(2) ١ / ٢٦ .

إيّاك نعبد ، على وإيّاك نستعين ، لأنّ العبادة له هي المقصودة . والاستعانة وسيلة إليها . والاهتمام والحزم تقديم ما هو الأهمّ فالأهمّ . والله أعلم ".

٥. إنّنا بصدد درسين عظيمين في هذه الآية الكريمة ، يلقّننا ربّ العزّة إيّاهما . أمّا الأوّل فهو أنّ المخصوص بالعبادة ، هو الله تعالى وحده لا شريك له . ونحن إذا تدبّرنا الآيات الكريمة السّابقة ، تبيّنّا أنّ مَنْ تلك الصّفات العظام خاصّة به وحده دون سواه ، ينبغي أن يختصّ وحده لا شريك له بالعبادة وبطلب العون .

وإنّ تخصيص العبادة لله وحده لا شريك له ، إنّما هو في مقابل إشراك كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم ، في العبادة مع الله تعالى سواه ، على الرّغم من علمهم بأن الله تعالى وحده لا شريك له هو الخالق الرّازق المدبّر المحيي المميت ، وأنّ الآلهة التي يعبدون من دون الله تعالى ، لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ، فضلاً عن غيرهم ، ضرّاً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ، ولا نشوراً . ولكنّه عمى البصيرة والعياذ بالله .

وإنّ الدّرس القرآنّي الأوّل في الآية الكريمة ليهدف إلى إزالة الغشاوة عن الأعين ، والصّدأ عن القلوب ، والصّمم عن الآذان : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فالله جلّ وعلا هو الذي ينبغي أن يعبد وحده لا شريك له ، وإنّ واجب العباد أجمعين أن يعوا هذه الحقيقة جيّداً ، وأن يترجموها إلى عمل . ولا شكّ أننا بصدد درسٍ قرآنيّ عظيم ، ليت الإنسانية تنتفع به . إذ المعروف أن من أسباب الشقاء الذي تعانيه الإنسانية اليوم ، هو اتخاذ الأهواء آلهةً تعبد من دون الله تعالى ، من شغفٍ بتكديس القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، عن طريق الحلال أو الحرام ، ومن حب لاقتناء الخيل المسوّمة والأنعام وما في حكمها والحرث. ومن فتنة بالجاه والمنصب والسّلطة والزّينة ، ومن تفاخر بحطام الدنيا ، إلى غير ذلك من مظاهر النعيم الذي مصيره

الزوال ، والذي يعتبره البعيدون عن معرفة الصراط المستقيم ، غاية المنى ونهاية المطاف.

إنّ الناس لو كانوا يعبدون الله تعالى وحده لا شريك له ، وترجموا تلك العبادة إلى عمل صالح مبنيّ على الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد ، لتحقّق لهم قوله تعالى في محكم كتابه[1] : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. وإنّ مقدار الشقاء الذي تعاني منه البشرية اليوم وكل يوم ، هو بمقدار الابتعاد من الله تعالى . وتبعاً لإقبال البشرية على الله تعالى مستقبلاً أو انصرافها عنه ، يكون حظها من إقبال السعادة عليها أو انصرافها عنها ، كلاً أو جزءاً .

وإنّ الدّرس القرآنيّ الثاني في الآية الكريمة : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ليتعلق بتقرير الحقيقة التي ينبغي أن يعيها كلّ مخلوق وهي أنه لا حول ولا قوة للإنسان إلاّ بالله تعالى . ما أجمل هذا الدرس العظيم الذي تلقيه علينا الآية الكريمة التي ترشدنا إلى أنه لا يليق بالمسلم لله ربّ العالمين أن يغفل عن بارئه طرفة عين ، في كل شئونه الدينية والدنيوية وقد قيل :

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأوّل ما يجني عليه اجتهاده

ولا شك أن هذه الدروس القرآنية العظيمة ، قد حذقها المسلمون المتقّون المجاهدون . الذين كانت لهم الكلمة الأولى في الدّنيا ، فقد كانوا يعبدون الله تعالى حقّ العبادة ، ويريدون بكلّ أعمالهم الصالحة وجه ربهم الأعلى . وبهذا كلّه هم تحولوا إلى طاقة جبارة هائلة ، تجمع بين الاستعانة بالله تعالى والاعتماد والتوكل عليه ، في كلّ أمورها الصّغيرة والكبيرة ، الحقيرة والجليلة ، وبين تحويلها كلّ ما

[1] سورة النحل ٩٧ .

منّ الله تعالى به عليها إلى طاقةٍ مسخّرة لخدمة الدّين الذي رضي الله تعالى لعباده ، وبسب اعتماد المسلمين الكلّيّ على الله في كلّ ما يأتون من أعمال ، وبسبب توكّلهم على الله تعالى حق التوكل ، ورضاهم عن كل ما يقدر لهم من نتائج ، كانوا منسجمين داخلياً مع هذا العالم الخارجي ، لأن القرآن الكريم علّمهم بأن ما أصابهم من حسنة فمن الله ، وما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم ، ولهذا هم في توكلهم على الله تعالى يفهمون أنّ كل ما يقدّر لهم ، إنما هو بعلم الله تعالى وإرادته ، ولذلك هم راضون سعداء بشأن كل ما يأتون ويدعون.

وفي سبيل تبيين بعض جوانب الرّوعة في هذا الدرس القرآني ، الذي ينبغي للمسلم لله ربّ العالمين أن يطبّقه كاملاً في استعانته بالله تعالى في كلّ أموره ، وعدم غفلته عن بارئه طرفة عين ، سائلاً الله جلّت قدرته ،كما علّمه رسوله الكريم، ألاّ يكله إلى نفسه طرفة عين ، في إمكاننا أن نتدبّر الدّعاء النبويّ الشريف ، وقد فعلت ثقيف به ﷺ ما فعلت ، مِنْ ردٍّ غير كريم ، وإغراءٍ به ﷺ للسفهاء لئيم . لقد دعا المصطفى ﷺ ربه قائلاً[1] : " **اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلي بعيد يتجهّمني أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي . ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، مِنْ أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك . لك العُتْبي[2] حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك** " .إن دعاء المصطفى ﷺ ربه في ذلك الظرف العصيب ، يختم بالقول : " **ولا حول ولا قوة إلا بك** " وهو ولا شك تطبيق عمليّ للدرس القرآني في الآية الكريمة من سورة الفاتحة التي نزلت في وقت مبكّر من الدعوة الإسلامية بعد سورة المدّثر .

---

(1) السيرة النبوية ٢ / ٩٢ .
(2) العتبي : الرضى .

ويقول ابن كثير في تفسيره[1] : " وقدّم المفعول وهو إيّاك وكـرّر ، للاهتمـام والحصر ، أي لا نعبد إلا إيّاك ، ولا نتوكل إلا عليك . وهذا هو كمال الطـاعـة ". والدين كلّه يرجع إلى هذين المعنيين. وهذا كما قال بعض الـسلف : الفاتحـة سـرّ القرآن ، وسرّها هذه الكلمة : إياك نعبد وإياك نستعين . فالأول تبرؤٌ من الـشرك . والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتّفويض إلى الله عزّ وجلّ . وهذا المعنى في غيـر آية من القرآن كما قال تعالى[2] : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ، ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[3]، ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾[4] وكذلك هذه الآية الكريمة . ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ويقول أبو الحسـن النّـدوي[5] : " وما الحياة إلا عبادة واستعانة . وبهما يتـصل الإنـسان بالإنـسان . والـضعيف بالقـوي ، والفقير بالغنّي ، والمحكوم بالحاكم ، والعابد بـالمعبود ، فـإذا جرّدتـا وأفردتا لله تعالى ، فكّت السلاسل والأغلال ، وحطّمت الأوثان و الأصنام ، وبطـل الشرك ، وزالت الفتنة ، وكان الدين كله لله . أعظم إعلان يعلنه مسلم وأكبر تعهُّـدٍ يتعهّده . فلينظر ما يقول ، وليكن على نفسه حسيباً رقيباً ، فكلّ ما يواجهه في الحياة خارج الصلاة ، إمّا يدعوه لخضوعٍ واستكانةٍ ، وإمّا يدعوه لسؤالٍ واستعانة. وقد كفر بهما جميعاً ، وثار على كلّ من تزعّمهما أو تظاهر بهما " .

٦. في التعبير الكريم الذي يلّقننا رب العزّة إيّاه تجيء صيغة جماعة المتكلمين وليس صيغة المفرد : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ممّا يمكن أن يفهم منه قيمة الجماعة فـي الإسلام والعمل على تقويتها وجعل الأخوّة الإسلامية حقيقة واقعة ، عن طريـق التعاون على البرّ والتّقوى . إنّ المسلم لله ربّ العالمين كثيراً ما يردد هذه السورة الكريمة وحيداً ، ولكنه في حقيقة الأمر لا ينسى إخوانه المسلمين ، لذلك هو يدعو

---

(١) ١/ ٢٥.
(٢) سورة هود ١٢٣ .
(٣) سورة الملك ٢٩ .
(٤) سورة المزمل ٩ .
(٥) الأركان الأربعة ص ٤٠ .

لهم ولنفسه بخيري الدنيا و الآخرة . هو إن كان بجسده وحيداً ، فإنّه بمشاعره وأحاسيسه وعواطفه يحب أن يكون كثيراً لأنه يتمنّى لكل أخ له في الإسلام ، ما يتمناه لنفسه ، وها هو ذا يدعو الله تعالى كل يوم كرّات ومرّات ، له ولإخوانه المسلمين بكل خير وفلاح في الدنيا والآخرة ، ويكفي أن يعرف أنّ كلّ مسلم يرتّل هذه السورة الكريمة كلّ يومٍ سبع عشرة مرّة على أقلّ تقدير .

وإن هذه الصيغة الجماعية في الدعاء ، لتشي بقيمة الوحدة الإسلامية ، وبكون المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائره بالسّهر والحمّى ، وبكون المسلمين كالبناء المرصوص يشدّ بعضه بعضاً . وفي الوقت الذي يدعونا الإسلام إلى الاتحاد والتعاون على البرّ والتقوى ، لأن المؤمنين إخوة ، هو يحذّرنا من كلّ عوامل التفكّك واختلاف الكلمة . قال تعالى[1] : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ وإنّ هذه الروح الجماعية التي تستفاد من هذا الدّرس القرآني لتذكرنا بحرص الإسلام على إظهار هذه الروح الجماعية الإسلاميّة أو الأمة الإسلاميّة ، ويتجلى ذلك في العديد من الميادين ، ويكفي أن يقال إنّ الإسلام قدّم صلاة الجماعة في المسجد على صلاة الإنسان في بيته ومكانه بخمس وعشرين درجة أو سبع وعشرين درجة . وهناك صلاة الجمعة وصلاة العيدين إلى غير ذلك من صلوات جامعة يتوقع أن يجتمع أثناءها أعدادٌ كبيرة من صالحي الأمة ومتّقيها ، الذين يتجهون إلى الله تعالى بقلوب خاشعة ونفوس ضارعة وعيون دامعة ، وكل ذلك مظنة أن يستمطر رحمات الله تعالى وبركاته . وليس ببعيدٍ عن أذهاننا حديث المصطفى ﷺ : ما رُؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة ، وما ذلك إلاّ بسبب إقبال العباد على الله تعالى ، راجين رحمته ، وقد قال عز من قائل[2] : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي

---

(1) سورة الأنفال ٤٦ .
(2) سورة غافر ٦٠ .

أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ وقال[1] : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾.

إنّ الشّيطان الرّجيم يؤذيه أن تغمر المسلمين يوم عرفة شآبيب رحمة البرّ الرّحيم ، التي يعتقد أنّ لاجتماع أكبر عددٍ من الصالحين في صعيدٍ واحد وتوجّههم إلى بارئهم سبباً مهمّاً في هطولها . إنّ علينا نحن المسلمين أن نستفيد من هذه الدّروس القرآنية العظيمة . وقد قال عز من قائل[2]: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

٧. قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من إيّاك[3] وفتح نون نستعين ، قرأ بها الجمهور ؛ وهي لغة الحجاز وهي الفُصْحى[4].

٨. معنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع . ومنه طريق معبّد إذا كان مذلّلاً بكثرة الوطء ، ومن ذلك قول طرفة :

تبارى عتاقاً ناجياتٍ وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مَوْرٍ معبّد

يعني بالمور الطريق ، وبالمعبّد المذلّل الموطوء ومن ذلك قيل للبعير المذلّل بالرّكوب في الحوائج معبّد[5] ويقال : هو الذي عبّده الجرب أي ذلّله .. قال شمر: قيل

---

(١) سورة البقرة ١٨٦ .
(٢) سورة آل عمران ١٠٢ – ١٠٤ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٢٥ .
(٤) البحر المحيط ١ / ٢٣ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٥ .
(٥) تفسير الطبري ١ / ٥٣ .

للبعير إذا هُنيء بالقطران معبّد . لأنّه يتذلّل لشهوته القطران وغيره فلا يمتنع[1] والعبادة في الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبّة والخضوع والخوف[2] أي أنّ العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلّل . ومنه ثوبٌ ذو عبدة ، إذا كان غاية في الصفاقة وقوة النّسج ، ولذلك لم تستعمل إلاّ في الخضوع لله تعالى ، لأنه مُولي أعظم النّعم ، فكان حقيقياً بأقصى غاية الخضوع[3].

والعبادة مقامٌ عظيمٌ يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى .. وقد سمّى الله رسوله ﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال[4] : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾[5] ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾[6] فسمّاه عبداً عند إنزاله عليه ، وعند قيامه في الدّعوة ، وإسرائه به ، وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقاتٍ يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول[7]: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾[8].

٩. أطلق العبادة والاستعانة لتتناول كل معبودٍ به ، وكل مستعانٍ عليه . وكرّر إيّاك ليكون كلّ من العبادة والاستعانة سيقا في جملتين ، وكلّ منهما مقصودة ، وللتّنصيص على طلب العون منه ، بخلاف لو كان إيّاك نعبد ونستعين ، فإنّه كان يحتمل أن يكون إخباراً بطلب العون ، أي وليطلب العون من غير أن يعيّن ممّن يطلب[9]، قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

---

(١) اللسان " عبد " .
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٢٥ .
(٣) الكشاف ١ / ٤٩ .
(٤) سورة الكهف (١) وانظر هنا طريق الهجرتين وباب السّعادتين ص ٩ .
(٥) سورة الجن ١٩ .
(٦) سورة الإسراء ١ .
(٧) سورة الحجر ٩٧ - ٩٩ .
(٨) تفسير ابن كثير ١ / ٢٦ .
(٩) البحر المحيط ١ / ٢٥ .

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

أشارت الآية الكريمة السابقة :﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ إلى أمرين ، يعتبران قوام هذه الحياة ، العبادة والاستعانة . ومعروفٌ أن الاستعانة يمكن أن تتعلق بأمور دينية وبأمور دنيوية ، فلننظر إلى الآية الكريمة التالية : ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ ﴾ كي نتبين الجانب الذي يتقدم الآخر في نظر الإسلام ، والذي ينبغي أن يعيه المسلم لله رب العالمين ، ويتمشى بموجبه . وواضحٌ أن الجانب الدينيّ هو الذي يتقدّم ، وهذا أمرٌ طبيعيّ ، لأنّ الإنسان إنما خُلق من أجل عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . وإذا كنّا نقول إنّ مفهوم العبادة في الإسلام واسعٌ إلى أبعد الدرجات ، بحيث يشمل كل الأعمال الصالحة التي يريد بها المسلم وجه ربه الأعلى ، فلا يخفى أن أركان الإسلام الخمسة هي الأساس ، وهي قوام العبادة وعمادها . إنّ توفيق الله تعالى الإنسان للإيمان بها ، وعلى رأسها شهادة ألاّ إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، وترجمة هذا الإيمان إلى عمل ، هو عين الرّبح والتوفيق والهداية . وإذا كانت النعمة الكبرى على الإنسانية في هدايتهم إلى دين الإسلام ، الذي رضيه الله تعالى لعباده ، فإنّ التّوفيق في استمرار الهداية غاية المنى ومنتهى الطلب ، خاصة إذا عرفنا أن المسلم لله رب العالمين ، مأمورٌ بأن يدعو الله تعالى بأن يجعل آخر عمره أحسنه ، فإن العبرة بالخواتيم . ومن هنا يتبيّن حاجة كل إنسان الملحّة إلى عون الله تعالى المستمرّ الدّائم . وإن رب العزة ، الذي يحبّ أن يدعوه عباده ، والذي وعد بالإجابة ، ليُرشد عباده ، في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد إلى أفضل الدعاء : ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ﴾ . ومفهومٌ بداهةً أن المعنى في حق المسلم لله ربّ العالمين ، زدنا هدىً إلى هدانا الذي أرشدتنا إليه يا ربنا ووفقنا للحصول عليه .

وهكذا يتبيّن أنّ المسلم لله ربّ العالمين ، ينبغي أن يسأل الله تعالى دائماً وأبداً ، الهداية والتوفيق ، في كل أموره ، وفي مقدمتها الهداية إلى استمرار السير في الصّراط المستقيم ، الذي عماده وقوامه طاعة الله تعالى وطاعة رسوله الكريم ، وقد قال عز من قائل[1] : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ وقال[2]: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ وقال[3] : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال[4]: ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ وقال[5]﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

وبتدبّرنا للآية الكريمة بالقياس لما سبقها نتبين التلاحم العجيب ، وكأن هذه الآية الكريمة : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ تعتبر تبييناً للآية الكريمة السابقة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لأنها تبيّن أهم ميادين الاستعانة . وهو الجانب الدينيّ ، أي جانب العبادة . وليست الآية السابقة سوى عبادة واستعانة .كما أن هذه الآية الكريمة ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ تعيّن أهم الميادين التي ينبغي أن يلحّ العبد في دعائه الله تعالى بشأنه ، وهو ميدان الهداية للصراط المستقيم . وحينما يكون الإنسان سائراً بعون الله تعالى في الصراط المستقيم الذي بيّنه القرآن الكريم وسنّه المصطفى صلى الله عليه وسلم والسّلف الصالح بعد ذلك ، فإن هذا الإنسان يصح في حقّه بإذن الله

---

(1) سورة ال عمران ٣٢ .
(2) سورة النساء ٥٩ .
(3) سورة ال عمران ٣١ .
(4) سورة النساء ٨٠ .
(5) سورة الحشر ٧ .

تعالى قوله عز من قائل[1] : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وليس بخافٍ أن التعبير جاء في صيغة الجمع ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وليس في صيغة المفرد ، وما قيل عن الروح الجماعية التي يحث الإسلام على تقويتها بشأن قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يقال هنا .

وثمة بعض المسائل المتعلقة بالآية الكريمة ، وهي على النحو التالي :

١. الأصل في هدى أن يصل إلى ثاني معموله باللام أو إلى[2] كقوله تعالى[3] : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ وقوله تعالى[4] على لسان أهل الجنة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾ كما يتعدّى بإلى كقوله تعالى[5] : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وقوله تعالى[6]: ﴿ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وقوله تعالى[7] : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ ثم يتّسع فيه فيتعدّى إليه بنفسه .ومنه[8]:﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [9] فتضمن معنى ألهمنا أو وفّقنا أو ارزقنا أو أعطنا[10].

٢. اهدنا الصراط المستقيم ، قراءة الجمهور بالصّاد ، وقريء السّراط ، وقريء بالزّاي [11] والصّراط لغةً في السراط ، والسراط السبيل الواضح[12] قال الفرّاء :

---

(١) سورة النحل ٩٧ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٢٥ .
(٣) سورة الإسراء ٩ .
(٤) سورة الأعراف ٤٣ .
(٥) سورة الشورى ٥٢ .
(٦) سورة النحل ١٢١ .
(٧) سورة الصافات ٢٣ .
(٨) سورة الفاتحة ٦ .
(٩) البحر المحيط ١ / ٢٥ .
(١٠) تفسير ابن كثير ١ / ٢٧ .
(١١) تفسير ابن كثير ١ / ٢٦ .
(١٢) اللسان " سرط " .

ونفرٌ من بلعنبر يصيّرون السّين إذا كانت مقدَّمة ثم جاءت بعدها طاء أو قاف أو غين أو خاء صاداً . وذلك أن الطاء حرفٌ تضع فيه لسانك في حنكك فينطبق به الصوت . فقلبت السين صاداً ، صورتها صورة الطـــاء ، واســـتخفّوها ليكـــون المخرج واحداً ، كما استخفوا الإدغام ، فمن ذلك قولهم : الصّراط و الـــسِّراط . قال : وهي بالصاد لغة قريش الأوّلين التي جاء بها الكتاب . قال : وعامة العرب تجعلها سيناً . وقيل : إنما قيل للطريق الواضح سراط لأنه كأنه يسترط المـــارّة ، لكثرة سلوكهم لا حِبَه[1] وقال أبو جعفر الطوسيّ : أهل الحجاز يؤنّثون الـــصراط كالطريق والسبيل و الزّقاق والسوق . وبنو تميم يذكّرون هذا كله . ويجمع فـــي الكثرة على نحو كتاب وكتب . وفي القلّة قياسه أسرطه نحو حمار و أحمرة . هذا إذا كان الصراط مذكراً . وأما إذا أنّث فقياسه أفعل نحـــو ذراع وأذرع وشـــمال وأشمل[2].

وجاء في تفسير الطبري[3] : " قال أبو جعفر : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه. وكـــذلك ذلك في لغة جميع العرب فمن ذلك قول جرير بن عطيّة الخَطَفى[4]:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوجّ الموارد مستقيم

يريد على طريق الحقِّ .. ثم تستعير العرب الصّراط فتستعمله في كل قول وعمـــل وصف باستقامة أو اعوجاج . فتصف المستقيم باستقامته . والمعوجّ باعوجاجه . قال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

---

(1) اللسان " سرط " والطريق الّلاحب هو الطريق الواضح . ومعنى يسترط المارّة : يبتلعهم .
(2) البحر المحيط ٢٥/١ .
(3) ٥٧ / ١ .
(4) الخطفي بفتح الخاء والطاء : جدّ جرير على وزن جَمَزي .

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ

علاقة هذه الآية الكريمة ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ ﴾ علاقة وثيقة بسابقتها : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فيكفي أن يعرف في هذا الشأن أنّ لفظة الصّراط الثّانية " صراط " مبدلةٌ من الأولى " الصّراط " ويكفي أن يعرف أننا لا زلنا بصدد طلب العبد من الله تعالى استمرار العون بشأن الهداية إلى الصّراط الذي وصف مرّةً بأنه مستقيم ، ووصف مرّةً أخرى بأنه صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم . وكأننا بصدد تكريرٍ صريح للفظ الهداية ، وكأنّ التعبير : اهدنا الصّراط المستقيم ، اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم . وواضحٌ أنّ هذا التّكرار المفهوم ضمناً قوةٌ لطلب الهداية في المرّة الأولى ، وقوّة لطلب العون الذي جاء من ذي قبل في القول : " وإيّاك نستعين " والّذي تجلّى أوضح ما يكون في طلب الهداية واستمرارها . قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ .

النعمة لين العيش وخفضه . ولذلك قيل للجنوب النُّعامي[1] للين هبوبها . وسميت النّعامة للين سهمها[2] والفعل أنعم يتعدّى في الأصل بنفسه .. يقال : أنعمته ، أي جعلته صاحب نعمة[3] ولأنه ضُمِّن معنى التفضّل عدّي بِعَلى ، الذي يفيد الاستعلاء[4] وفيما يتصل بإنعام الله تعالى على عباده يمكن أن يلاحظ ما يلي :

---

(1) بضم النون (القاموس) .
(2) البحر المحيط ١ / ٢٦ وانظر القاموس " نعم " .
(3) البحر المحيط ١ / ٢٦ .
(4) البحر المحيط ١ / ٢٦ .

١. لقد جاء الإنعام مطلقاً غير مقيّد ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ ﴾ كي يشمل كل نعم الله تعالى التي لا يمكن أن يحصيها العبد وفي مقدمتها نعمة الإسلام لله رب العالمين . ولا شك أننا في هذا الدرس القرآني بصدد مظهر من مظاهر رحمة البرّ الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

٢. إنّ الحديث هنا عن صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم ، إنما هو امتدادٌ للدرس القرآني في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الذي يلقّن فيه المسلم طلب الهداية إلى الصراط المستقيم . صراط الذين أنعم عليهم . وهذا تنبيهٌ لطيفٌ لكل مسلم لله رب العالمين ، بأن كل نعمة وصلت إليه، أو يمكن أن تصل إليه ، وفي مقدمتها طلب الهداية إلى الطريق المستقيم ، والسير في ذلك الطريق الذي سار فيه المنعم عليه من عباد الله تعالى الصالحين ، لا يمكن أن تصل إلى الإنسان إلاّ بعون من الله تعالى وفضل . فعلى كل مسلم لله رب العالمين ألاّ يغفل عن طلب العون منه جلّ وعلا في كل أموره ، صغيرها وجليلها ، بما في ذلك طلبه منه جلّ وعلا أن يديم عليه أكبر النّعم الّتي امتنّ الله تعالى بها عليه ، وهي نعمة الهداية إلى الصّراط المستقيم ، صراط المنعم عليهم ، نعمة الإسلام لله رب العالمين . وإنّ واجب الإنسان وراء ذلك ، أن يترجم طلب الاستعانة ذلك ، وهو مظهرٌ من مظاهر العبادة ، إلى عبادةٍ خالصة لله تعالى . وبذلك يقوم المسلم لله رب العالمين ، بما لقّنه في أول السّورة ، من حمدٍ لله تعالى وثناء عليه بما هو أهله ، وبذلك يكون المسلم لله ربّ العالمين ، قد ترجم الحمد والثّناء على الله تعالى إلى عمل صالح ، يعتبر توحيد الله تعالى أعلى قممه .

يقول الطبري[1]: " وفي هذه الآية دليلٌ واضحٌ على أن طاعة الله جل ثناؤه ، لا ينالها المطيعون إلاّ بإنعام الله بها عليهم وتوفيقه إياهم لها . أو لا يسمعونه

[1] تفسير الطبري ١ / ٥٩ .

يـقـول : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ ﴾ فأضاف كل ما كان منهم من اهتداء وطاعة وعبادة إلى أنّه إنعامٌ منه عليهم ".

٣. لو أنّنا حاولنا أن نعرف المنعم عليهم في هذه الآية الكريمة : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ ﴾ فإننا في ضوء كون الآية الكريمة تتحدث في المقام الأول عن المنعم عليهم من البشر ، الذين يمشون في الأرض مطمئنين ، والذين يصحّ للإنسان أن يتخذ منهم أسوة حسنة ، ففي الإمكان أن نجد تبييناً لهؤلاء المنعم عليهم في هذه الآيات الكريمات من سورة النساء[1] ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۞ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۞ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۞ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۞ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾. وفيما يتصل بآيات سورة النّساء هذه ، هي تشير إلى الصراط المستقيم الذي يهدي الله تعالى إليه الذين يفعلون ما يوعظون به بأن يطيعوا الله تعالى ويطيعوا رسوله الكريم . إنّ القوم الذين تلك صفاتهم سيكونون يوم القيامة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . ومما قد يعتبر مؤيداً لوجهة النّظر هذه من كون المراد بالمنعم عليهم تلك الفئات الممتازة من البشر ، والتي تبدأ بالنبيين وتنتهي بالصالحين ، هو أن هذه الآية الكريمة من سورة مريم[2] ، قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ تشير إلى الذين تحدثت عنهم الآيات قبل ذلك من المنعم عليهم من أنبياء الله تعالى ورسله ، وهم زكريا ويحيى وعيسى ابن مريم وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس صلوات الله وسلامهم عليهم ، إضافة إلى مريم ابنة عمران التي اصطفاها الله تعالى

---

(١) الآيات ٦٦ – ٧٠.
(٢) الآية ٥٨.

وطهرها واصطفاها على نساء العالمين . وليس بخافٍ أنّ كلّ هؤلاء المنعم عليهم من البشر الذين يمشون على الأرض مطمئنين . وبالإضافة إلى هؤلاء المنعم عليهم الذين تحدثت عنهم السّورة الكريمة والذين أشارت إليهم الآية الكريمة ، فإن الآية الكريمة تجعل دائرة المنعم عليهم تتجاوز النبيين والمرسلين إلى عباد الله تعالى الصالحين ، من الذين حملوا مع نوحٍ عليه السلام في السفينة ، ومن ذريّة إبراهيم وإسرائيل عليهما السلام ، ومن الذين هدى الله تعالى واصطفى . ونستطيع أن نفهم أن من بين هؤلاء الصالحين صديقين وشهداء . قال تعالى : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّآلِّينَ

بعد أن بينت هذه الآية الكريمة : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أهم أنواع طلب العون من الله تعالى و وهو الهداية إلى الصراط المستقيم ، وفسّرت هذه الآية الكريمة التالية ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ طبيعة الصراط المستقيم وكونه صراط الذين أنعم الله عليهم ، وصفت هذه الآية الكريمة ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّآلِّينَ ﴾ الذين أنعم الله تعالى عليهم ، من كونهم غير مغضوبٍ عليهم ولا ضالّين . ونودّ أن نسجل ملاحظاتنا على هذه الآية الكريمة في هيئة نقاط :

١. " قال أبو جعفر : و القرّاء مجمعةٌ على قراءة غير بجرّ الرّاء منها "[١] ويقول ابن كثير[٢]: " قرأ الجمهور غير بالجرّ على النّعت " ونحن نرى أنّ لفظة غير جاءت مجرورة نعتاً أو صفة ، وإن كان ثمة رأيان للنحويين في هذه المسألة ، وقد أشار إليهما الزّمخشريّ[٣] حيث يقول : " غير المغضوب عليهم بدلٌ من الذين أنعمت عليهم . على معنى أنّ المنعم عليهم هم الّذين سلموا من غضب الله والضّلال ، أو صفةٌ على معنى أنّهم جمعوا بين النّعمة المطلقة ، وهي نعمة الإيمان ، وبين السلامة من غضب الله والضلال " .

٢. الغضب تغيّر الطبع لمكروه[٤] فإن قلت : ما معنى غضب الله قلت : هو إرادة الانتقام من العصاة وإنزال العقوبة بهم ، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده ، نعوذ بالله من غضبه ، ونسأله رضاه ورحمته[٥] والضلال والضلالة ضد الهدى والرشاد[٦] تقول : ضللت المسجد والدار ، إذا لم تعرف موضعهما . وضللت الدار والمسجد والطريق وكلّ شيء مقيم ثابت لا تهتدي له[٧] والضّلال :

---

(١) تفسير الطبريّ ١ / ٥٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٢٨ .
(٣) الكشاف ١ / ٥٥ .
(٤) البحر المحيط ١ / ٢٨ .
(٥) الكشاف ١ / ٥٦ .
(٦) اللسان " ضلل " .
(٧) اللسان " ضلل " .

الهلاك والخفاء . ضلّ اللبن في الماء[1] والضلال سلوك سبيل غير القصد . ضلّ عن الطريق سلك غير جادّتها . والضلال : الحيرة والتردّد[2] والضلال في كلام العرب هو الذّهاب عن سَنَن القصد وطريق الحق . ومنه ضلّ اللبن في الماء . أي غاب . ومنه : أئذا ضللنا في الأرض ، أي غبنا بالموت وصِرنا تراباً[3].

٣. يلاحظ التنويع في التعبير بشأن نفي صفة الغضب والضلال عن المنعم عليهم ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّآلِّينَ ﴾ فإذا كانت " لا " تفيد النّفي الواضح الصريح ، فإنها معطوفة على غير ، التي تتضمن معنى النفي .

٤. إنّ السّياق يتضمن أداة النّفي " لا " ولا يستغنى عنها . فلا يقال غير المغضوب عليهم والضّالين . ولكن : غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين ، لأننا بصدد صفتين غير مرغوبٍ فيهما ، وهما صفة الغضب من الله على القوم ، وصفة الضلال من قِبَل القوم . فنحن من ناحية بصدد تفنّن في التعبير . هذا إلى أن الاستغناء عن أداة النفي " لا " قد يوهم عطف الضّالين على الذين أنعم الله عليهم[4].

٥. لقد قدم السّياق المغضوب عليهم على الضّالين . ونعتقد أن السبب لا يكمن فقط في كون الجمال الصوتي يقتضي ذلك ، لأنّ لفظة الضّالّين التي خُتمت بها الآية الكريمة تتمشى صوتيّاً مع الكلمات المماثلة لها موضعاً في الآيات السابقة[5] إنّما هناك أكثر من سبب معنوي وراء هذا النّوع المعيّن من نظم الكلام . وأوّل ما يلاحظ في هذا الصدد هو أنّ لفظة الإنعام التي جاء ذكرها في الآية الكريمة ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ والتي تعني رضا الله تعالى ، تقابل معنوياً لفظة الغضب . فلو أنّنا أردنا أن نعبّر عن معنيين متقابلين يعتبر الإنعام أحدهما لقلنا على سبيل المثال : مُنعَمٌ عليهم

---

(١) البحر المحيط ١ / ٢٨ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٢٨ .
(٣) تفسير القرطبي ١٣٠ .
(٤) انظر هنا مثلاً البحر المحيط ١ / ٢٩ .
(٥) انظر هنا البحر المحيط ١ / ٣٠ .

ومَغضوبٌ عليهم . فحينما تجيء صفتان لفريق من النّاس يقفان على طرف النّقيض من صفات المنعَم عليهم وتكون إحداهما صفة الغضب ، فمن البديهيّ أن تقترب هذه الصّفة من التي يقابلها . ومن الطّبيعيّ بناءً على ذلك أن تتقدم صفة الغضب على صفة الضلال ، خاصّةً ونحن بشأن الصّفتين المرغوب عنهما ، وأمام أولى الصفتين الأشد قوة ، وذلك قادر على إظهار كل المعنيين المتقابلين ، الإنعام والغضب على التوالي ، شديدي البياض والسّواد . وهذا ذاته قوّة للرأي الذي يعبّر عنه القول : وبضدها تبين الأشياء . قال تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلا الضَّالِّين ﴾ يقول أبو حيان:[1] " وقدّم الغضب على الضّلال وإن كان الغضب من نتيجة الضّلال ، ضلّ عن الحقّ فغضب عليه ، لمجاورة الإنعام ومناسبة ذكره قرينة ، لأنّ الإنعام يقابَل بالانتقام ولا يُقابِل الضّلال الإنعام . فالإنعام إيصال الخير إلى المُنعم عليه . والانتقام إيصال الشر إلى المغضوب عليه . فبينهما تطابق معنوي . وفيه أيضاً تناسب التسجيع " .

٦. لقد عرفنا معنى كل من الغضب والضلال لغويّاً . ونستطيع للوهلة الأولى أن نذهب إلى كون كلّ من هاتين الصفتين ، يصحّ أن تنطبق على كلّ الذين يستحقون غضب الله تعالى ، وعلى كلّ الذين يستحقون أن يوصفوا بالضلال . ولكن ثمة حديثاً للمصطفى ﷺ مفاده أنّ المغضوب عليهم هم اليهود وأنّ الضّالين هم النصارى . ولا يخفى أنّ اليهود يتقدمون النصارى زمناً ، كما يتقدمونهم عداوةً ، ومن هنا يبدو السبب الآخر في تقديم صفة الغضب بسبب أصحابها زمناً وعداوةً [2] عن أبي ذرّ قال سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم قال : اليهود . قلت : الضّالين . قال : النصارى[3] وعن عديّ بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ المغضوب عليهم

---

(1) البحر المحيط ١ / ٣٠ .
(2) انظر هنا البحر المحيط ١ / ٣١ .
(3) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠ وانظر صفحة ٢٩ .

اليهود[1] وعن عديّ بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : ولا الضّالين قال النّصارى[2] .

ويقول أبو حيّان[3] : " والمراد بالإنعام الإنعام الدّينيّ . والمغضوب عليهم والضّالّين عامٌّ في كلّ من غضب عليه وضلّ . وقيل : المغضوب عليهم : اليهود . والضّالّون : النّصارى ، قاله ابن مسعود وابن عبّاس ومجاهد والسّديّ وابن زيد . وروي هذا عن عديّ بن حاتم عن رسول الله ﷺ . وإذا صحّ هذا وجب المصير إليه " وجاء في تفسير ابن كثير [4]: " وقال ابن أبي حاتم : ولا أعلم بين المفسّرين في هذا اختلافاً " .

وقد اعتمد المفسّرون في هذا الرأي على حديث المصطفى ﷺ الذي ذكرنا وعلى العديد من الآيات القرآنية التي وصفت اليهود بأنّهم مغضوبٌ عليهم ، ووصفت النّصارى بأنّهم ضالّون . ومن ذلك قوله تعالى في بني إسرائيل[5]: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ وقوله تعالى[6]: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ وقوله تعالى[7]: ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ وقوله تعالى[8] : ﴿ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ وقوله تعالى[9]: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ .

---

(1) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠ وانظر صفحة ٢٩ .
(2) تفسير الطبري ١ / ٦١ .
(3) البحر المحيط ١ / ٣٠ .
(4) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠ .
(5) سورة البقرة ٩٠ .
(6) سورة المائدة ٦٠ .
(7) سورة آل عمران ١١٢ .
(8) سورة المجادلة ١٤ .
(9) سورة المائدة ٧٧ .

وقد تبيّن للعلماء أنّ اليهود وُصفوا بأنهم مغضوب عليهم لأنّ الحقّ قد وصلهم فعرفوه ومع ذلك هم جحدوه . وأنّ النّصارى وصفوا بأنّهم ضالّون لأنّهم أخطأوا الطريق الصّحيح . أمّا المؤمنون المتّقون المنعم عليهم ، فهم الذين عرفوا الحقّ فاتّبعوه وعملوا به . ويقول ابن كثير[1]: " فإنّ طريقة أهل الإيمان مشتملةٌ على العلم بالحقّ والعمل به . واليهود فقدوا العمل . والنّصارى فقدوا العلم . ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنّصارى . لأنّ من علم وترك استحقّ الغضب ، بخلاف من لم يعلم . والنّصارى لمّا كانوا قاصدين شيئاً لكنّهم لا يهتدون إلى طريقة ، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه ، وهو اتّباع الحقّ وضلّوا ، كلٌّ من اليهود والنصارى ضالٌّ مغضوبٌ عليه . لكن أخصّ أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم : ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ . وأخصّ أوصاف النّصارى الضّلال ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ . وبهذا جاءت الأحاديث والآثار " ويقول العلاّمة أبو الحسن النّدويّ في هذا الأمر[2] : " لا يتذوّق كلمة المغضوب عليهم ، ولا يؤمن بصحّتها وانطباقها على اليهود إلاّ من درس تاريخهم وعرف سيرتهم والدّور الهدّام الذي لعبوه في تاريخ الإنسانيّة والمدنيّة ، وما يحملونه من حقد دفين للأجيال البشريّة عامّة ، ومن حبٍّ الاستعلاء بالاستئثار . وكذلك لا يفهم الإنسان سرّ اختصاص النّصارى بالضّلال ووصفهم بالضّالين إلاّ إذا قرأ تاريخ المسيحيّة ، وما تعرّضت له من المسخ والتّحريف ، والغموض والالتباس منذ نشأتها وفي عهدها الباكر ، والدّور الذي لعبه بولس في تطوير الدّيانة هذه وتلوينها بلونٍ خاصّ ، والدور الذي لعبته الكنيسة في تلوين العقيدة النّصرانيّة وتفسيرها ، وخضوع العالم المسيحيّ لجميع هذه العوامل والمؤثّرات " .

---

(1) تفسير ابن كثير ١ / ٢٩ .
(2) الأركان الأربعة ص ٤١ هامش رقم ٢ وهامش رقم ٣ .

٧. " ما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى : صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ . وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى : غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ . وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾[1] قال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ .

---

[1] تفسير ابن كثير ١ / ٣٠ .

آمِیـــــــــنْ

آمِينْ

يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها آمين ، مثل يس ، ويقال أمين بالقصر أيضاً[١] ومعنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللّهمّ استجب لنا ، وضع موضع الدّعاء[٢] عن ابن عبّاس قال : سألت رسول الله ﷺ : ما معنى آمين ؟ قال : ربِّ افعل[٣] وآمين صوتٌ سُمّيَ به الفعل الذي هو استجب . كما أنّ رويد وحيّهل وهلمّ أصوات ، سُمّيت بها الأفعال التي هي : أمْهِل ، وأسْرِع ، وأقْبِل[٤] وعن النبيّ ﷺ : لقّنني جبريل عليه السلام آمين عند فراغي من قراءة فاتحة الكتاب وقال : إنّه كالختم على الكتاب[٥] وليس من القرآن بدليل أنّه لم يثبت في المصاحف[٦].

والدّليل على استحباب التّأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والتّرمذيّ عن وائل بن حجر قال : سمعت النّبيّ ﷺ قرأ : غير المغضوب عليهم ولا الضّالين . فقال : آمين ، مدّ بها صوته . ولأبي داود رفع بها صوته . وقال التّرمذيّ . هذا حديث حسن ، وروي عن عليّ وابن مسعود وغيرهم[٧] وعن أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا تلا غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين قال : آمين ، حتّى يسمع من يليه من الصّف الأول . رواه أبو داود وابن ماجة وزاد فيه : فيرتجّ بها المسجد والدّارقطنيّ وقال : هذا إسنادٌ حسن[٨] وأضاف ابن كثير[٩] : " قال أصحابنا وغيرهم : ويستحبّ ذلك لمن هو خارج الصّلاة . ويتأكّد في حقّ المصلّي وسواءٌ كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً وفي جميع الأحوال ، لما جاء في الصحيحين[١٠] عن

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣١ .
(٢) تفسير القرطبي ص ١١١ .
(٣) تفسير القرطبي ص ١١١ والكشاف ١ / ٥٨ وتفسير ابن كثير ١ / ٣١ .
(٤) الكشاف ١ / ٥٨ .
(٥) الكشاف ١ / ٥٩ .
(٦) الكشاف ١ / ٥٩ .
(٧) لعل الصحيح وغيرهما .
(٨) تفسير ابن كثير ١ / ٣١ .
(٩) تفسير ابن كثير ١ / ٣١ .
(١٠) جاء الحديث في صحيح البخاري ٦ / ٢١ .

أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال : إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنّه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدّم من ذنبه . ولمسلم أنَّ رسول الله ﷺ قال : إذا قال أحدكم في الصّلاة آمين ، والملائكة في السّماء آمين ، فوافقت إحداهما الأخرى ، غُفر له ما تقدّم من ذنبه " . وقد علّق القرطبيّ في تفسيره[1] على هذا الحديث بعد أن ذكره : " قال علماؤنا رحمة الله عليهم . فترتّبت المغفرة للذّنب على مقدّمات أربع تضمّنها هذا الحديث .

الأولى : تأمين الإمام .

الثانية : تأمين من خلفه .

الثالثة : تأمين الملائكة .

الرابعة : موافقة التّأمين . قيل في الإجابة .، وقيل في الزمن ، وقيل في الصّفة من إخلاص الدّعاء لقوله عليه السّلام : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة . واعلموا أنّ الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ . قال تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ آمين . صدق الله العظيم ، وصلّى الله على سيّدنا محمّد النبيّ الأميّ ، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً . والحمد لله ربّ العالمين .

---

[1] ص ١١٠ .

الخاتـــــــــمة

الخـــاتـــمة

أثناء دراستنا المتأمّلة لسورة الفاتحة في الصّفحات السّابقة أشرنا في التّوطئـــة إلى بعض المسائل ذوات العلاقة بالسّورة الكريمة منها الإشارة إلى آراء العلماء تجاه كون السّورة الكريمة مكيّة أو مدنيّة . وقد أشرنا إلى أنّنا نرجّح رأي جمهور العلماء بكون السّورة الكريمة من المكيّ من القرآن الذي نزل قبل الهجرة . كما أشرنا إلـــى اتّفاق العلماء بشأن عدد آيات السّورة الكريمة وكونها سبعاً . واختلافهم حول الآيات التي تكون بها السّورة الكريمة سبع آيات . فالذين اعتبروا البسملة آية من الفاتحـــة ، اعتبروا قوله تعالى : صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ، آيـــةً واحدة . والذين لم يعتبروا البسملة آية ، اعتبروا صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ آيـــة قائمـــة بذاتها وما بعدها آية كذلك . وقد أمكن إحصاء خمـــسة وعـــشرين اســـماً للـــسّورة الكريمـــة ، وحاولنا أن نبيّن معاني ما يحتاج إلى تبيين أو زيادة إيضاح . كما أنّهـــا تتضمّن خمسة من أسماء الله تعالى الحسنى هي : الله ، الرّبّ . الرّحمن . الرّحيم . المالك أو الملك . وقد أشرنا عرضاً إلى آراء العلماء بـــشأن قـــراءة الفاتحـــة فـــي الصّـــلاة ، وبشأن الجهر بالبسملة أو الإسرار بها ، وبشأن اعتبارها آيةً من الفاتحة وسواها وعدم اعتبارها .

أمّا الدّراسة المتأمّلة للسّورة فقد قامت على دعامتين واضحتين .

الأولى : مظاهر الإعجاز البيانيّ في السّورة الكريمة . وقد كانت العناية كبيرةً بمحاولة تبيين أنواع الرّباط بين آيات السّورة الكريمة كلّها .

الثانية : استخلاص الدّروس الّتي يمكن استفادتها من هذه السّورة الكريمة التي يعتبرها العلماء سرّ القرآن . وقد كانت عنايتنا بهذه النّاحية كبيرةً انطلاقاً من قولـــه

تعالى عن هذا القرآن الكريم[1] : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۞ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

وبسبب علاقة السّورة الكريمة بمجموعة من الأحكام ، كان اعتمادنا كبيراً على تفسير القرطبيّ الجامع لأحكام القرآن .

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتقبّل منّا صالح الأعمال ، وأن يعفو عمّا بدر منّا من تقصير ، وألاّ يحرمنا من أجر إنّه سميع مجيب ، وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد النبيّ الأميّ الكريم ، وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

[1] سورة الإسراء ٩ ، ١٠ .

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة

مقدمة ٣
توطئة ٦
هل البسملة آية من الفاتحة وغيرها من السّور ؟ ١٩
بسم الله الرحمن الرحيم ٢٥
الرحمن الرحيم ٣٤
الحمد لله ربّ العالميـــن ٤٠
الرّحمن الرّحيم ٥٣
مالك يوم الدين ٥٨
إيّاك نعبد وإياك نستعين ٦٧
إهدنا الصراط المستقيم ٧٨
صراط الذين أنعمت عليهم ٨٣
غير المغضوب عليهم ولا الضالين ٨٨
آمين ٩٥
الخاتمة ٩٨
فهرست الموضوعات ١٠١
فهرست المصادر والمراجع ١٠٣

فهرست المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

ابن كثير : عماد الدّين أبو الفدا . إسماعيل بن كثير . تفسير ابن كثير ، بيروت. ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م .

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم . لسان العرب . بيروت. ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥ م .

ابن هشام : السّيرة النّبويّة . تحقيق محمّد محيّ الدّين عبد الحميد . دار الفكر .

أبو حيّان : محمّد بن يوسف ، بن علي ، بن يوسف . البحر المحيط . بيروت . بدون تاريخ .

أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني . دار الكتب .

البخاري : كتاب الصّحيح . كتاب الشّعب ١٣٧٨هـ.

البنّا : حسن ، رسالتان في التّفسير وسورة الفاتحة . الطبعة الأولى . بيروت ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢ م .

الجلالين : جلال الدّين السّيوطيّ وجلال الدّين المحلّيّ ، تفسير الجلالين .

الحملاوي : أحمد . شذا العرف في فنّ الصّرف . الطّبعة السّادسة عشرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥ م مصطفى البابي الحلبيّ .

الزّجّاج : أبو إسحاق إبراهيم بن السّريّ الزّجّاج . تفسير أسماء الله الحسنى تحقيق أحمد يوسف الدّقاق . بيروت ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥ م .

الزّمخشريّ : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر . الكشّاف . طبع مصطفى البابي الحلبي . ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .

الطّبريّ : أبو جعفر محمّد بن جرير الطبريّ . تفسير الطّبريّ ، جامع البيان في أحكام القرآن . الطبعة الأولى . بولاق . ١٣٢٩ هـ .

الفيروزابادي : القاموس المحيط .

القرطبيّ : أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاريّ . تفسير القرطبيّ ، الجامع لأحكام القرآن . كتاب الشّعب . بمصر .

المودودي : أبو الأعلى . تفهيم القرآن . الجزء الأول . تعريب احمد إدريس . القاهرة . الطّبعة الأولى ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

النّدوي : أبو الحسن علي الحسني ، الأركان الأربعة ، الطّبعة الثالثة ، بيروت . ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤ م .